الفصل الخامس

التمييـــز الدينـــي

- قال تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.
- قال رسول الله ﷺ: «تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم».
- قال الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: «مما يسر أكثر من هذا كله أننا نرى شخصيات بارزة في العالم تعتنق العقيدة الإسلامية ليس عن طريق إكراه أو إرغام ولكن عن قناعة بأن العقيدة الإسلامية هي عقيدة الإنصاف والعدل والرأفة والرحمة والقوة في نفس الوقت، وليس ثمة تنظيم أفضل من تنظيم العقيدة الإسلامية للإنسان في بيته أو في نفسه أو في لبسه أو في نظافته، وليس من شيء فيه خير للبشر إلا دلتنا عليه وقالت إن هذا هو الأصلح. إذا فالعقيدة الإسلامية دين ودنيا ولا يستطيع أحد إذا أردنا أن نناقش النقاش الصحيح معه إلا أن تكون لنا الغلبة عليه، والدليل على ذلك إنه منذ سنة اجتمع بعض من فطاحلة العالم في نواحي علمية ودرسوا ما سجل التاريخ من قديم عن أبرز شخصية أنجبها التاريخ فأشاروا كلهم إلى محمد ﷺ، وهذا فخر لنا لأن هذه الدول أو هؤلاء الأشخاص ليسوا بمسلمين ولكن كانوا منصفين، وكل ما أتمنى من ربنا أن يهدينا إلى الطريق الصواب ويجمع شمل المسلمين في إطار واحد ويحفظ علينا ديننا قبل كل شيء ويجعلنا مواطنين صالحين وملتفين حول بعضنا نتلمس أخطاءنا ونصلحها ونتلمس الأشياء التي ستصبح مفيدة للمملكة العربية السعودية نبنيها للعالم الآخر».
- تقول الكاتبة الألمانية زيغريد هونكه Sigrid Hunke: «﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق بممارسة شعائر دينهم، وترك لهم المسلمون بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهادات اليهود، إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية، فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع الميلادي لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب فيقول: (أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف)».

التمييـز الدينـي

إذا كانت الحروب واستعمار البلدان والأمم والشعوب والهيمنة على ثرواتها ومقدراتها هو استعلاء قائم على تمييز القوي على الضعيف، وتمييز الباطل على الحق، وإذا كان الاتجار بالبشر واسترقاقهم بصورة أو بأخرى هو من وجوه التمييز الذي خضع ويخضع له الإنسان سواءً سياسياً أو اقتصادياً أو دينياً من أبعاده العسكرية والحربية، فإن من أبشع وجوه التمييز والتفريق بين الناس هو التمييز الديني وقهر الشعوب التي لا تتبع الدين الذي يريده الأقوياء، هذا التمييز الذي يمارس على الإنسان في عالمنا المعاصر مناقض لجميع الحقوق والمبادئ ، ويعتبر التمييز الديني من أخطر نواقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخصوصاً ما تشير إليه المادة الثامنة عشرة من الإعلان وفيها: «لكل شخص حق في حرية الفكر والوجدان والدين». وهنا سنوضح أن الإسلام يحقق للإنسان حرية الدين دون إكراه ولهذه الحرية ضوابطها التشريعية، لها ما قبلها ولها ما بعدها، فلا يكره أحد على الإسلام كما لا يفرض على الإسلام وسائل التلاعب والاستهتار والاستهجان. والإسلام يحرِّم التمييز الديني ويمنع قهر الناس بسبب اختلاف الدين.

ولقد اهتمت هيئة الأمم المتحدة بإصدار العديد من الصكوك الدولية الخاصة بالتمييز وكافة أشكاله، فاحتفت بالعديد من الاتفاقيات الخاصة بذلك ، فهناك إتفاقية التمييز في مجال الاستخدام والمهنة، والإتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز في مجال التعليم ، وعلى الأخص الإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز الديني القائمين على أساس الدين أو المعتقد والذي صدر عن الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بالقرار رقم ٣٦/٥٥ في ١٩٨١/١١/٢٥م ، هذا الإعلان الذي ما زال نظرية لم يخضع للتطبيق مما نراه من ممارسات بعض دول الاستكبار في إهانة المسلمين ومنعهم من ممارسة حرياتهم الدينية ولعل ما سنورده

من أمثلة مقارنة في هذا المبحث سوف نبيِّن من ينكر من؟ ومن يريد أن يقضي على الآخر لأنه يقول ربي الله .

١ ـ الإسلام والتمييز الديني

نتحدث في هذا الفصل عن التمييز الديني من أبعاده الفكرية والعقدية وتوظيف وسائل الإعلام والاتصال لذلك كما أوضحناه من أبعاده القتالية الحربية وتوظيف الآلة العسكرية له في الفصل السابق، لبيان أن التمييز الديني من نواقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وعلى الأخص ما جاء في المادة الثامنة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على حرية الفكر والمعتقد وحرية الدين ، هذا فضلاً عن الإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين والمعتقد الذي نشرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بموجب قرارها رقم ٥٥/٣٦ في ١٩٨١/١١/٢٥م، ولكن ما نراه نحن المسلمون أن هناك نواقض كثيرة لهذا الإعلان ومواده الإنسانية والحقوقية في معاملة الأديان الأخرى للمسلمين ومؤازرة أعداء الإسلام وشن الحروب ضد المسلمين كما هو مشاهد في كشمير والفلبين وأفغانستان وكسوفو والشيشان والبوسنة والهرسك والسودان والعراق وغيرها من البلدان، كما أن وسائل الإعلام والاتصال الظالمة تعمد لوصف المسلمين بالإرهاب لوصم الإسلام والمسلمين بالإجرام، كما أن هناك حَجْراً على حريات الأقليات المسلمة التي تعيش في دول غير مسلمة، فلننظر ما قاله الناقد والنحات الانجليزي روم لاندو Rom Landou مقارناً الواقع الحقيقي للتمييز الديني بين الإسلام والنصرانية فيقول : « على نقيض الإمبراطورية النصرانية التي حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياه فرضاً، اعترف العرب بالأقليات الدينية وقبلوا بوجودها، كان النصارى واليهود والزرادشتيون يعرفون عندهم بـ (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتعة بالحماية، لقد ضُمِنَتْ حرية العبادة لهم من طريق

الجزية .. التي أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية ، وكانت هذه الضريبة مضافاً إليها الخراج، أقل في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي. كانت كل فرقة من الفرق التي تعامل كَمِلّة ، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتياً ضمن الدولة. وكانت كل ملة تخضع لرئيسها الديني »[1].

ويؤكد هذا الأمر في العصر الحديث روجيه جارودي المفكر الفرنسي المشهور حيث قال : «افترى الاستعمار الإنجليزي والإسباني والفرنسي بما قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن افتراءً منهجياً لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية ودين الإسلام»[2]، ولقد اتخذت حكومات أعداء الإسلام وسائل عديدة لمحاربة الإسلام وأهله، فعندما ضاقت تلك الدول ذرعاً بغير المواطن الأصلي أصبحت لا تسمح لهؤلاء الناس بالتماس اللجوء إليها لتجتمع الأسرة المتفرقة التي نصفها في بلاد المهجر ونصفها الآخر في البلد الأصلي للمهاجر، وهذا التضييق يكون في أشده على المسلمين دون غيرهم، ولعل أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م دليل واضح على بعض الدول التي أعادت النظر في نظام الجنسية والهجرة ونظام الإقامة، فوضعت مزيداً من القيود والضوابط على المهاجرين من الأصول العربية أو أتباع الدين الإسلامي ، والنهار لا يحتاج إلى دليل، فهو تمييز ديني مناقض للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصكوك الدولية المنبثقة عنه.

والإسلام لا يجيز هذا التمييز وينبذه وهو ليس في الشريعة الإسلامية من شيء ، قال تعالى :﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، هذا بيان من المولى جل وعلى إلى النبي محمد ﷺ وإلى كافة المسلمين بأن لا يُكْرَه أحد على اعتناق الإسلام، فإنه دين واضح بيِّن ، فمن شرح الله صدره ونوَّر قلبه وبصيرته وهداه للإسلام دخل فيه على بينة ، ومن ختم الله على قلبه وسمعه وبصره فدخوله في الإسلام لا يفيده كرهاً وقسراً ، فمن اتهم الشريعة الإسلامية بإكراه الناس للدخول

فيه بحد السيف فهذا خطأ فاحش، فالله تعالى قد رسم لرسوله ﷺ قواعد الدعوة للإسلام وبين أن ذلك لا يكون بالجبروت والقوة، فقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[٤]، وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٥]، وقال عز من قائل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٦]، وروى إبن جرير أن رجلاً من الأنصار كان له ابنان نصرانيان رغب أبوهما أن يكرههما على الإسلام، فقال للنبي ﷺ : **«ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية»** فنزل قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٧].

وهنا نكرر ما سبق أن قلناه عن حقوق الأنبياء والرسل ووجوب الإيمان بهم وعدم الإساءة إليهم وإلى أتباعهم وعدم إتخاذ التمييز الديني وسيلة لانتهاك حقوق الإنسان، إننا نحن المسلمون عندما نتحدث عن اليهودية والنصرانية مثلاً، إنما نتحدث عن أسس وأركان الإيمان في الإسلام ومنها أن يؤمن المسلم بأنبياء الله ورسله جميعاً ، ويؤمن بما دعوا إليه من دعوات التوحيد، يقول المولى جل وعلا : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٨]، وقال النبي محمد ﷺ : **« أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[٩]، فدعوة الرسل جميعاً هي توحيد الله بالألوهية وإفراده بالعبادة ، وهذا هو إيمان المسلمين بجميع الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فنحن المسلمين نؤمن بعيسى بن مريم وأنه نبي الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ونعترف بأن النصرانية دين سماوي مقدس، نؤمن به كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، لا على ما هي عليه من تحريف وتبديل، قال تعالى :﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا

تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[10]، يقول أبو هريرة رضي الله عنه : «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :**«لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»**[11].

وإننا نؤمن بما أنزل الله جل جلاله على موسى وعيسى عليهما السلام، ولا نؤمن بما حرفته أيدي الأحبار والرهبان ، وجعلت الإنجيل أربعة كتب، وجُعلت الإله ثلاثة : الأب، والابن، والروح القدس، فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً . كما أننا نؤمن يقيناً أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بمجادلة أهل الكتاب وغيرهم من أهل الأديان بالحسنى كما جاء في أكثر من موطن من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[12] .

ويلحظ أن الهجمات التي تشن ضد النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم، وضد الإسلام بصفة عامة من قبل بعض المسيحيين المثقفين وبمؤازرة اليهود في كتاباتهم وأحاديثهم والغارات المستمرة حتى اليوم، هي مصدر إيذاء كبير للمسلمين تمثل حقيقة التمييز الديني الذي يمارسه غير المسلمين ضد الإسلام والمسلمين، وهذه الهجمات على الإسلام تخلو من المناقشة العلمية والموضوعية، لأنها تتسم بالانفعال والإساءة ، بقصد النيل من الإسلام وتحقيره، وهي هجمات مليئة بالسباب والشتائم، تقوم على الأكاذيب والافتراءات، أما نحن المسلمين فلا نفعل ذلك، لأننا نقدر مريم وعيسى المسيح عليهما جميعاً سلام الله وصلواته تقديراً عالياً، وهذا جزء من عقيدتنا ، فالإيمان برسل الله ركن من أركان الإيمان، بل إن التلفظ بأية كلمة تدل على أقل قدر من عدم الاحترام نحوهما أو سبهم قد يفضي إلى الكفر في ديننا، وتعرضنا للخروج من دين الإسلام، وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله تعالى باباً بعنوان : سب الأنبياء كفر وردة ومحاربة في كتابه : (الصارم المسلول على شاتم الرسول) فضلاً عن سب الأنبياء وقال فيه : « والحكم في سب نبينا محمد ﷺ كمن سب نبياً مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين والمذكورين في القرآن أو موصوفاً بالنبوة ، فالحكم كما تقدم فسبهم كفر وردة إن كان من مسلم، أو محاربة إن كان من ذمي، وقد أوجب الإسلام على من يفعل ذلك العقوبة حداً»[١٣]. وربما لا نستطيع أن نأتي بمثال واحد يزعم فيه أن مسلماً ادعى أقل قدر يمكن تخيله من عدم الاحترام للنبي عيسى وأمه البتول عليهما السلام، إننا بالطبع لا نؤمن بألوهية المسيح عيسى ، ولكن إيماننا بنبوته لا يقل ثبوتاً عن إيماننا بنبوة محمد عليهما الصلاة والسلام ، وأن أحداً لا يمكن بالتأكيد أن يكون مسلماً ما لم يؤمن ويقر بنفس التصديق ، والإيمان بالمسيح عيسى ابن مريم مع التصديق بالنبي محمد عليهما الصلاة والسلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[١٥]، وقال النبي ﷺ: **«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»**[١٦]، وقال ﷺ : **«أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي»**[١٧]، يتحدث الكاتب البريطاني ب. أ. باتيل **B.A. Pattel** عن الإسلام وابتعاده عن التمييز الديني فيقول : «لقد أيقنت أن الإسلام هو المنهج الذي يحقق غاية (الوجود الإنساني) فهو يمتاز بالبساطة والواقعية والشمول، فالإسلام يحترم كافة الأديان ويوقر جميع الأنبياء ، قال تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا

أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فهل هناك أبلغ من هذا الدليل على شمول الإسلام وعقيدته وإيمانه بالله الواحد الأحد؟»[١٨].

وكما أن الإسلام يتسم بالبساطة والواقعية والشمول ويحترم كافة الأديان ولا يفرق بين الرسل والأنبياء وأنهم سواء في مقام النبوة والرسالة إلا من اصطفى الله منهم وجعل بعضهم من أولي العزم، فالإسلام ينأى عن أي شكل من أشكال التمييز حتى بين العلماء والفقهاء وأهل العلم الشرعي وبين عامة الناس كما يقول أحد مفكري الهند إذ يرى أن : « الإسلام على عكس الهندوكية والنصرانية، لا يحتفظ بأي جزء من تعاليمه ويجعله حكراً لطبقة خاصة من الناس، بمعنى أنه في الإسلام لا يوجد كهنوت ولا رجال دين كطبقة منفصلة متميزة لها امتيازاتها ، فالتعاليم الإسلامية موجهة إلى كافة البشر وهي بسيطة سهلة يستطيع كل إنسان أن يفهمها بكل يسر . فالإسلام يؤكد في تعاليمه أن على الناس أن يفكروا وأن يستخدموا عقولهم في الأمور الدينية»[١٩]، ويؤكد هذه المعاني كلها ما تحدث به المعمدان القسيس الغاني ناجيمو راموني **Najimu Ramoni** قبل إسلامه حيث قال: « إن الإسلام هو أعظم الأديان ملائمة لجيلنا المتحضر ولكل جيل، فالإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا بحيث تتحول الحياة إلى طريقين مختلفين تماماً، وهذا يشكل خلاصة الأزمة الإنسانية المعاصرة، لقد اعتنقت الإسلام لأنه دين طبقات الناس جميعاً كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها، دين الأحرار والعبيد والسادة والمسودين»[٢٠].

وبالمثل فإننا لا نعد القرآن وحده كتاب الله، بل التوراة والإنجيل غير المحرفتين أيضاً كتب الله المنزلة على أنبيائه ، ولا يمكن لأي مسلم أن يُكِّن أي شعور يظهر فيه عدم احترامه لهذه الكتب المقدسة، وإذا كانت هناك مناقشات فيما بين المسلمين والمسيحيين حول الكتاب المقدس، فقد كان ذلك يتصل بالنظر إلى تأكيد ما إذا كان الكتاب المقدس المتداول الآن في شكله الحالي بين اليهود والنصارى كتاباً صحيحاً، يعتمد عليه أم لا؟ وما إذا كان يضم ما أوحى به الله إلى الأنبياء أم

لا ؟ وهذه المشكلة نوقشت على نطاق واسع ، حتى من قبل العلماء المسيحيين أنفسهم ، لأن الكتاب المقدس المتداول يتضمن في بعض أجزائه نقلاً بشرياً وتاريخياً ، إلى جانب الوحي إلى الأنبياء والرسل. والواقع فإن المسيحيين أو اليهود لم يشكوا مرة من أن المسلمين سبوا أنبياءهم أو أساؤوا إلى كتبهم المقدسة ، بالعكس من ذلك ، فإن تجربة المسلمين هي أنهم كانوا دائماً يتعرضون لسباب النصارى واليهود، وقد يستمر هذا الموقف المؤلم دون هوادة على امتداد قرون كثيرة منهم تجاه المسلمين ، وإن من المستشرقين وأمثالهم من الكتاب والأدباء لا تكاد تفلت من أيديهم فرصة لنفث سمومهم ضد نبينا محمد ﷺ وضد القرآن الكريم وضد المسلمين ودينهم[٢١].

إن هذه العوامل توضح حقيقة العلاقات بين هذين المجتمعين العالميين غير الإسلامي والإسلامي، فهناك أمور تتطلب انتباهاً مباشراً ، يتصل بالأساليب التي تستخدمها البعثات التنصيرية المسيحية والمنصرون المسيحيون لنشر المسيحية في البلاد الإسلامية ، إن الطريقة التي يتبعها دعاة الإنجيل هؤلاء غير مقبولة إطلاقاً ، وتشكل مصدراً للنزاع والخصومة وظهور التميز الديني. إن بعض النصارى لا يحدون نشاطهم بالدعوة إلى الدين من حيث هو ، ولكنهم بدلاً من ذلك يلجأون إلى طرق ووسائل لا يمكن إلا أن تسمى وسائل ضغط سياسي، أو استغلال اقتصادي، أو تدمير أخلاقي وتمييز ديني، إن ما يراه المسلمون بأعينهم ، وما يظهر في بقية العالم الإسلامي يقدم الدليل القاطع على ذلك ، إن هذه الأساليب لا يمكن مهما أحسن المرء الظن أن ينظر إليها أي إنسان عادي على أنها وسائل طبيعية، أو سليمة، أو مقبولة للدعوة إلى أي دين، وفي أجزاء كبيرة من إفريقيا وغيرها من القارات حَرَمَ المنصرون (وهم مدعومون من جانب القوى الاستعمارية التي سيطرت عليها) المسلمين من كل الحقوق الإنسانية، فقد أغلقوا مثلاً أبواب المعاهد التربوية في وجه أي إنسان لا يعلن اعتناقه للمسيحية ، أو على الأقل لم يكن

مستعداً لتغيير اسمه الإسلامي إلى بعض الأسماء المسيحية كخطوة نحو التنصير، وهذا مظهر من مظاهر القائل التمييز الديني باستعلاء النصرانية على الأديان الأخرى[٢٢]، يقول إتيين دينيه : « من الحقائق التاريخية أن النبي ﷺ أعطى أهل نجران المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية . وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي لا يحبها الذوق السليم، وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيين عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم»[٢٣]، ويؤكد ذلك المفكر البريطاني بيجي رودريك **Peggy Roderik** حيث أن الإسلام في نظره ليس فيه ذاك التمييز الديني الذي يعتبر الأديان الأخرى على شركها ووثنيتها أدياناً وثنية كما هو الحال في النصرانية المدعومة بالصهيونية واليهودية فيقول : « لقد أعجبني كثيراً موقف الإسلام من الأديان الأخرى حيث نجد الإسلام ينظر إلى الأديان الكبرى في العالم بأن لها أصل سماوي واحد، وهذا نوع من الاعتراف والتقدير للأديان الأخرى ، وهو أقرب إلى المنطق والتسامح من الموقف النصراني الذي يصف كافة الديانات الأخرى غير النصرانية بالوثنية» [٢٤].

تلك كانت الطريقة التي يدعم بها المنصرون مركز الأقلية المسيحية ، التي تحولت إلى مجموعة حاكمة في معظم بلدان إفريقيا، وبعد الاستقلال كانت هذه الأقلية المصنوعة ذات النفوذ ، هي التي استولت على مقاليد الأمور السياسية والاقتصادية في كثير من الأقطار الإفريقية حيث يكون المسلمون أغلبية واضحة بل كاسحة ، لقد كان هذا ظلماً بيناً ارتكب في حق مناطق الأغلبيات المسلمة في إفريقيا وشكّل تمييزاً دينياً واضحاً . فأين دعاة حقوق الإنسان الذين دعموا هذا التمييز الديني وناقضت أفعالهم أقوالهم؟ وفي بلدان إسلامية أخرى مثل باكستان،

كان الإجراء العام في مستشفيات البعثات التنصيرية ومؤسساتها التربوية هو تقاضي مصروفات باهظة من مرضى المسلمين وتلاميذهم، ففي المستشفيات تتم الدعوة إلى النصرانية من خلال قساوسة أطباء وممرضات راهبات، من خلال التعرف على الظروف المعيشية للأفراد، التي من خلالها يستمال الشخص إلى النصرانية، وكذلك الحال في الجامعات والمدارس، حيث ينطلق فيها التنصير من تلاوة آيات موجودة في القرآن الكريم، وتكييف الموقف لذلك، والاستشهاد بآيات تؤكد على الوحدانية ، ولكن البسطاء من المسلمين والجهلاء منهم يجهلون ذلك عندما يتلى عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢٥]، فلقلة علم البسطاء وجهلهم يقعون في مصيدة التنصير ويتركون الإسلام ، ثم يردد المنصرون الكثير من الآيات التي تذكر عيسى في القرآن بما يتوافق مع وجوده في الإنجيل حتى يستميلوهم إلى النصرانية ويوهمهم بتمام التطابق بين الإسلام والنصرانية، برغم ما دخل النصرانية الكثير من التحريف والتغيير والتبديل[٢٦]، فإذا اعتنق بعض من ضربهم الفقر المسيحية، فإن التسهيلات الطبية والتربوية تقدم له مجاناً ، أو في نظير مصروفات إسمية ورمزية، إنه من الواضح أن هذه ليست دعوة دينية، إنها محاولة لشراء الضمير الإنساني والعوز البشري ببعض الفتات من لقم العيش من منطلقات التمييز الديني.

وهناك جانب آخر من المشكلة بالغ الأهمية ، ذلك أن المؤسسات التربوية للبعثات التنصيرية تخرج نمطاً جديداً من الناس من حيث المعتقد ، أناس لا يشاركون في المسيحية ، ولا يقون على دين الإسلام ، إنهم يمزقون أنفسهم من تراثهم ، ولا يتحصنون بأي تراث أخلاقي آخر ، والنتيجة أنهم أصبحوا منقطعي الصلة بتراثهم وتاريخهم ، وأنماط السلوك الثقافية من الدين واللغة والعادات الاجتماعية وكل ما يتصل بالحياة ، فصاروا عينة غريبة من البشر ، فمن وجهة

النظر الدينية الخالصة لا يبقون على اتصالهم بالإسلام ولا ينجذبون إلى المسيحية ، وبدلاً من ذلك يَدْفَعُون إلى جُحْر العلمانية والإلحاد والفوضى الدينية والأخلاقية، وفي هذا يقول المفكر الإسلامي المشهور أنور الجندي:« ومن هدف هذه الإرساليات التنصيرية: تخريج أجيال من العملاء ، التابعين للنفوذ الأجنبي من أولياء الثقافات الفرنسية والإنجليزية والماركسية والصليبية والتلمودية»[٢٧]، وقد استُخدم من تلاميذ المستشرقين والمبشرين (المنصرين) عملاء الاستعمار من الوطنيين الذين درسوا بجامعاتهم، وتشربوا بمبادئهم ، وهؤلاء قد أصبحوا منهم قادة الفكر لينفذوا سياسة المستعمر بقصد أو بغير قصد منهم ، بإيحاء من توجيهات المستشرقين والمنصرين[٢٨].

وما يؤكد ذلك كله ما جاء في كثير من توصيات مؤتمر كولورادو الذي عقد في الولايات المتحدة الأمريكية في مايو ١٩٧٨م عن التنصير وفيه: «يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب للدراسة ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدي الذي توفره المجتمعات الإسلامية ، ويعيشون نمطاً من الحياة مختلفاً ــ في ظل الثقافة العلمانية المادية ــ فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثير، وإذا كانت تربة المسلمين في بلادهم ــ بالنسبة إلى التنصير ــ أرضاً صلبة ووعرة، أفليس بالإمكان إيجاد مزارع خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم، حيث يتم الزرع والسقي والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية في بلادهم كمنصرين»[٢٩].

بل إن قساوسة التنصير والقائمين على مؤسساته بلغوا على الدرب اللا أخلاقي إلى الحد الذي قالوا فيه: « لكي يكون هناك تحول إلى النصرانية ، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس ــ أفراداً وجماعات ــ خارج حالة التوازن التي اعتادوها، وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية ،كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعي المتدني، وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية، ولذلك فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية

التنصير، وإن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى»[٣٠].

هل في وسع أي شخص عاقل أن يعد ألوان النشاط هذه من جانب البعثات التنصيرية المسيحية خدمة حقيقية للدين خالية من التمييز الديني وأن ذلك يمكن أن يحفظ حقوق الإنسان في حرية الدين والمعتقد ؟ هذه على وجه الدقة هي الأسباب التي ينظر من أجلها المسلمون عامة إلى هذه البعثات بقدر هائل من الشك ، ويشعرون أنهم لا يشتغلون بالدعوة إلى الدين من حيث هو بل بالتآمر ضد الإسلام والمجتمع الإسلامي .

والشعور العام بين المسلمين نحو أعداء الإسلام خصوصاً اليهود شعور ملؤه الاستنكار مما يدبر لهم ولدينهم من مؤامرات ومكائد ودسائس ، وهذا الشعور يقويه ما نراه ونلمسه في كل مكان تقريباً ، ومن ذلك ما حدث إبان الحرب بين العرب وإسرائيل عام١٩٦٧م ، فالطريقة التي أظهر بها الناس في أكثر البلاد المسيحية في أوروبا وأمريكا فرحهم واحتفالهم بانتصار إسرائيل ، تركت جرحاً عميقاً في قلوب المسلمين في كل أنحاء العالم ، ربما لا تجد مسلماً واحداً لم ينظر إلى موجة فرحهم وسرورهم الكاسحة بهزيمة العرب المسلمين على أنها مظهر للغل والحقد الدفينين لدى أعداء الإسلام ضد المسلمين.

والعلاقة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي لا يمكن أن تُفهم فهماً صحيحاً متوازناً ، إلا إذا نظرنا إليها ضمن إطارها التاريخي وإطارها الديني، فحينما ظهر الإسلام ، لم ير المسيحيون فيه آنذاك إلا مذهباً جديداً من المذاهب المسيحية كسائر المذاهب التي سبقته ، والتي اختلفت بشأنها بينهم، ولا يستثنى من ذلك إلا قلة من المسيحيين ، هم رجال الدين من الأحبار والرهبان ، الذين يدركون حقيقة الإسلام

بما تضمنته المسيحية نفسها من التبشير بالإسلام ونبيه محمد ﷺ، وكان من نتائج هذا الوضع أن ظلت جماهير النصارى تعتمد في تكوين أفكارها عن الإسلام من خلال ما يلقيه عليهم رجال الدين، ولم تتح لهم الفرصة لتكوين آراء حرة سليمة وصحيحة عن الإسلام، ويعد نفوذ رجال الدين في المسيحية على الدهماء من المسيحيين عاملاً بالغ التأثير في هذا الصدد، من خلال هذا المنظور الخاطئ إلى الإسلام ، ومن خلال التفكير المقيد غير الواعي بحقيقة الإسلام من قبل النصارى ، فقامت الحروب الصليبية بكل ما انطوت عليه من عدوان وتعصب فأصبحت قاعدة أساسية للتمييز الديني الذي يركب موجته أعداء الإسلام حتى اليوم وإن نادت المواثيق الدولية بحقوق الإنسان والابتعاد عن التمييز الديني[٣١]. وقد ترتب على هذا كله أن انقلب سوء الفهم للإسلام لدى المسيحيين إلى عداء دموي وحروب طاحنة ، بعد أن كان قبل ذلك لا يتعدى الإطار الفكري ، حتى إن كلمة (جهاد) أصبحت قادرة على أن تثير في نفوس النصارى من الرعب أضعاف ما تثيره عبارة (الحروب الصليبية) في نفوس المسلمين من إحساس بالعداوة والتربص ، لذلك فإن الحروب الصليبية ، والفكر الاستشراقي يحددان نوع العلاقة بين الإسلام والنصرانية كما سنتعرض إلى ذلك، ويكفي هنا الإشارة إلى التعمية التي عاشها النصارى عن معرفة الحقيقة حين ظلت جماهير المسيحيين تعتمد في تكوين أفكارها عن الإسلام من خلال ما يلقيه عليها رجال الدين والإعلام الصهيوني ووسائل الاتصالات المضللة للحقيقة. إلى أن جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م فاستيقظ العقلاء للبحث عن الإسلام ومعرفته دون واسطة أو مانع، فبدأ الحق يظهر والنور أبلج والظلام دامس، ومثالاً لذلك ما جاء في كتاب نعوم تشومسكي بعنوان : (١١/٩) ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم إصدار مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

النصرانية والتمييز الديني

نعود لنتحدث عن الإطار الذي حدد العلاقة بين الإسلام والنصرانية وظهور التمييز الديني في ظل الحروب الصليبية ، فآثار الاحتكار اليهودي للتجارة والذهب في أوروبا في القرون الوسطى خنق الأمراء الألمان سادة الأرض والحروب ، الذين استولوا على أراضي المقاطعات الأوروبية، وقسموها بينهم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، ونهبوا خيراتها بالتعسف والقوة، وكانت مزاحمة الاحتكاريين اليهود لهم على انتهاب الخيرات بواسطة الربا أحد الأسباب الرئيسية التي دفعتهم إلى التطلع نحو الشرق الإسلامي المزدهر ، وكان ذلك أحد أسباب الحروب الصليبية، لا سيما وأن هذا التزاحم على سلب الشعوب الأوروبية البائسة عن طريق الربا اليهودي تسبب في فقر مدقع في أنحاء أوروبا مع التأخر والتخلف .

كانت هذه أوضاع أوروبا التي مهدت لاتفاق بعض ملوك وأمراء المسيحية مع الأثرياء الإقطاعيين الباحثين عن المغنم ، والطامحين إلى الاستيلاء على العالم عنوة ، وذلك بشن حملة صليبية كبرى على الأرض المقدسة ، وقد التقت مصالحهم جميعاً مع مصالح المرابين والاحتكاريين اليهود، الذين دعوا إلى فكرة هذه الحملة بكل قواهم وإمكانياتهم المالية ، وانتشروا في أوروبا كلها لتحريض حكام المقاطعات وسادة الحرب المسيطرين عليها ، وإقناعهم عن طريق فتح خزائنهم على مصراعيها لهم لتجنيد المحاربين ورشوة المتخاذلين لضرب الإسلام والمسلمين، فكانوا بذلك القوة الخفية التي عملت من وراء الستار على قيام الحروب الصليبية ، ذلك أنهم وجدوا في هذه الحروب الفرصة الذهبية التي تتيح لهم تقديم القروض إلى زعماء الحملات وأمراء المقاطعات والبارونات وسلطات الكنيسة ذاتها بالربا الفاحش ، والمتاجرة بالعتاد والأسلاب ، إلى جانب الأهداف السياسية ، وهي إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معاً. وهذا المنطلق في التمييز الديني لدى اليهود ما

تعلمه النصارى منهم فمارسوه على المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وهو هدف اليهود الذي أرادوه ليحتموا به في وجه الإسلام[٣٢].

ويميل المؤرخون إلى اعتبار الحملات الصليبية التي شنها النصارى على المسلمين ثماني حملات ، قد يكون هذا الرقم صحيحاً فيما يخص الحملات التي توجهت إلى بلاد الشام ، لكن الحملات الصليبية التي شنت لمحاربة الإسلام هي أكثر من ذلك ، فمنها الحروب التي دارت بين النصارى والمسلمين في الأندلس وكل هذه يمكن وصفها بأنها حروب صليبية، حاول العداء الصليبي بقوته التي يمده بها الفكر اليهودي ، أن يحارب الإسلام وأهله ، تلك الصليبية التي بدأ الصراع معها بعد موقعة (أجنادين) وموقعة(اليرموك) التي أنهت السيطرة البيزنطية على بلاد الشام، ومن ثم دخول بيت المقدس تحت راية الإسلام والحكم الإسلامي، ثم تتابعت الفتوحات الإسلامية ، فشملت مصر وبرقة وإفريقيا والمغرب ، وكانت كلها تحت الحكم البيزنطي ، وامتدت الفتوحات الإسلامية إلى الأندلس ووصلت إلى فرنسا ممثلاً في معركة عظيمة من معارك المسلمين مع النصارى، وهي معركة بلاط الشهداء ، عندئذ عمدت بعض قوى النصرانية بعد أن رأت امتداد جحافل المسلمين ، وامتداد رقعة الإسلام ، ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ، وزحف الإسلام حتى أبواب فينا ، إن الصليبية وضعت نفسها في خدمة اليهودية العالمية ، ليسخرها رأس الأفعى في مساعدته على تحقيق خطط الهدم والتخريب، ومن أجل هذا تحالفت قوى الصليبية الأوربية في دول عديدة ، هي بلغاريا ورومانيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية ، وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء ، كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطنة التي كانت تمتد من تركيا شمالاً إلى حضرموت جنوباً ، ومن إيران شرقاً إلى طنجة غرباً ، فضاعت الجزائر سنة١٨٣٠م ، ثم احتلت مصر درة تاج السلطنة١٨٨٢م، ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب[٣٣].

هذه هي الحروب الصليبية التي بدأت منذ عام ١٠٩٥م ، ولا زالت ، وإن انتهت الصورة العسكرية لها ، ولكن الحرب لا زالت مستمرة فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعقدياً ، لأن العلي القدير سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[٣٤]، ولعل من تمام الفائدة أن ننقل هنا وصفاً للحروب الصليبية مما قاله أحد المؤرخين عنها :«لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع إلا فترة زمنية ، ولوناً خاصاً من ذلك الصراع الدائم ما بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي اختلفت تسميته باختلاف الأزمان والمقاصد، فإذا كان هذا الصراع يتمثل في العصور القديمة ما بين الفرس من جهة، واليونان والرومان من جهة أخرى، متخذاً صبغة الغزو والاكتساح في سبيل تكوين السلطنات العظمى والإمبراطوريات العالمية ، فإنه في العصور الوسطى اتخذ الصبغة الدينية من الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية الأوروبية ، أما في العصور الحديثة فإن صبغة هذا النزاع كان الاستعمار الذي ران على الشرق عموماً والإسلام خصوصاً، في أشكال متباينة ، وأوضاع مختلفة اعتمد فيها الغرب أكثر ما اعتمد على الحيل والدسائس»[٣٥]، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٣٦].

انطلقت الدعوة إلى الحروب الصليبية من فرنسا ، فكان أول من دعا إلى هذه الحروب البابا أربان الثاني في خطاب ألقاه في مجمع كلارمون ، عاصمة إقليم فران في فرنسا في سنة ٤٨٨هـ ـ١٠٩٥م ، وكان أكثر المشتركين في هذه الحرب ، ولا سيما في بدايتها فرنسيين ، وكان مما قاله البابا محرضاً جمهور السامعين على قتال المسلمين: «أنتم هنا فقراء تعساء، وهناك ستكونون سعداء ، يهبط عليكم الرخاء ، وأصحاباً مخلصين لله، لا تأخير بعد اليوم ، لتكونوا على الأهبة للخروج للقتال عندما يبلغكم النداء ، وسيكون الله مرشدكم»[٣٧] ، وحث البابا النصارى

على استعادة الأرض المقدسة فقال: «خلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة: تفيض لبناً وعسلاً»[٣٨]، بل إن البابا أربان وعد المحاربين بالغفران التام ، وأنه سيضمن لهم حفظ أموالهم وأهليهم في غيابهم.

ولما منيت أوروبا المسيحية بالخسارة والهزيمة في معظم حملاتها الصليبية على البلاد المقدسة ، امتلأت نفوس اليهود والنصارى حقداً على الإسلام والمسلمين ، فكانت هناك دعوة الكنيسة التي نادت بضرورة الأخذ بالثأر ، والتنكيل بالإسلام والمسلمين بشتى الوسائل وبمختلف الطرق والعمل الدؤوب للتصدي لحركة الدعوة الإسلامية، وانتشار حضارة الإسلام، فكرست الجهود لدفع حركة الاستشراق، وتم تشجيع رجال الفكر والمبشرين بتكثيف العمل ، والعكوف على دراسة الإسلام والمسلمين ، وبالتالي العمل على رسم الخطط المناسبة للهجوم على الإسلام والقضاء عليه ، وما الدراسات الإستشراقية إلا لون آخر من ألوان الحروب الصليبية المتصلة بالناحية الفكرية والثقافية والتمييز الديني، ذلك أن اليهود وجدوا أن المستقبل في الشرق كما يشير إلى ذلك أحد أحفادهم الكاتب الروائي اليهودي البريطاني بنيامين دزرائيلي حيث قال: «**الشرق مستقبل**»[٣٩]، وكان ذلك القول قد صدر منه عندما كان رئيساً للوزراء في بريطانيا قبل ما يقارب سبعين عاماً من صدور وعد بلفور لليهود بوطن قومي في فلسطين لأن الشرق مستقبل، فقد كان المستقبل السياسي والاقتصادي والديني لأعداء الإسلام مما يجري على أرض فلسطين ومنطقة الشرق الأوسط والدول الإسلامية في باكستان وأفغانستان وأندونسيا وماليزيا والعراق ودول منطقة الخليج وإيران.. الخ . والاستشراق أو الدراسات الإستشراقية مصطلح أو مفهوم عام ، يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، ولقد كان الإستشراق في بداية ظهوره مقتصراً على دراسة

الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها ، ثم بعد ذلك اتسعت مجالات الإستشراق ، وأصبحت تشمل دراسة الشرق كله : لغاته ، وأديانه وتقاليده وآدابه ، ولكن أهم ما اعتنى به المستشرقون في دراستهم هو الدين الإسلامي واللغة العربية، لأن ذلك مثار اهتمام المستشرقين الأول والكبير الذي يمثل النزاع الفكري والسياسي والعقائدي الذي يسود عصرنا الحالي ، والدراسات الإستشراقية التي تعنى بدراسة الحضارة الإسلامية واللغة العربية قامت على تقاليد موروثة لدى الفرنجة والغربيين ، وهي امتداد للحروب الصليبية، لأن هذا الميدان فيه فوائد عظيمة سياسياً وفكرياً تعود على الدول الغربية المسيحية ، والحكومات الغربية ممثلة في وزارات التربية والتعليم لا تدخر وسعاً في توجيه أعداد لا بأس بها من الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية للالتحاق بأقسام الدراسات الاستشراقية بالجامعات[٤٠].

إن مثل هذا الاهتمام البالغ بالدراسات الإستشراقية من قبل الحكومات، والمجالس النيابية، والأوساط الكنسية في الغرب يعد مؤشراً هاماً لما يهدف إليه الإستشراق، وما يمثله من خطورة ، وهذه الخطورة تتمثل في كتابات المستشرقين غير المنصفين أو الموضوعيين في الفكر والمنهج والأسلوب ، التي تهدف كتاباتهم إلى تشويه حقيقة الإسلام وحضارته، كما نرى ذلك ـ على سبيل المثال ـ في الموسوعة المشهورة بعنوان : (تاريخ الجنس البشري وتطوره الثقافي والعلمي) Development History of Mankind Cultural and Scientific والتي تصدرها منظمة اليونسكو بعدة لغات، وتقرأ في جميع أنحاء العالم[٤١]، وهذه الموسوعة تحمل في طياتها صورة سيئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين والعرب في مسائل العقيدة والشريعة والحياة الاجتماعية والاقتصادية، وهذا التمييز الديني يعد من أبرز النواقض في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان خصوصاً إذا ما علمنا أن هذه الموسوعة تصدر عن إحدى المؤسسات التابعة لهيئة الأمم المتحدة وهي تحمل هذا التوجه الفكري ضد الإسلام والمسلمين، إنها منظمة اليونسكو ، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة.

ولقد كانت غالبية المستشرقين في بداية ظهور الدراسات الإستشراقية من الرهبان ، والقسيسين والمبشرين، وكان بعضهم من الذين اهتموا بدراسة اللاهوت، وأمثال هؤلاء كان يهمهم إرساء نهضة الكنيسة وتعاليمها ، خصوصاً في العصور الوسطى ، وهذا مهد السبيل للرهبان في العصور اللاحقة الذين اهتموا بالتنصير ليسهموا في تذليل الصعاب أمام الاستعمار، وتسهيل مهمته في القضاء على الإسلام بطرقه التجسسية ومؤامراته التخريبية ، التي تلبس مسوح الرهبنة باسم الدين وباسم البحث العلمي، فمهما اختلفت نحل المستشرقين واتجاهاتهم من المغرضين الظالمين، فهم يهدفون جميعاً إلى هدف واحد ، وهو القضاء على الإسلام، لهذا فإن المستشرق إنما هو جزء مكمل للحضارة المادية في الغرب، التي تقوم على البيروقراطية الاستعمارية، والتمييز الديني والتمييز العنصري والسياسة الاستكبارية[٤٢].

إن الإستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث ، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد ، وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه،: «لا ريب إذاً أن أصدق مفهوم للإستشراق هو أنه العلم في خدمة السياسة والاستعمار ، وهدفه القضاء على الإسلام والمسلمين ، وإذابة الشخصية الإسلامية وتغييرها»[٤٣].

ومن وجوه التمييز الديني ما فعلته بعض الدول عندما لجأت إلى استعمار البلدان الإسلامية وقهر شعوبها أخذاً بالثأر وما لحق بهم أيام الحروب الصليبية ، وهذا أيضاً من نواقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مما ورد نصه في المادة الثانية من الإعلان التي تقول: « لكل إنسان حق في التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في الإعلان، دونما تمييز من أي نوع ، ولا سيما التمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس، أو اللغة أو الدين ، أو الرأي السياسي أو غير السياسي ، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو المولد أو أي وضع آخر. وفضلاً عن ذلك لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسي أو القانون الدولي للبلد أو الإقليم الذي

ينتمي إليه شخص سواء أكان مستقلاً أم موضوع تحت الوصاية أم غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعاً لأي قيد آخر على سيادته». إن الاستعمار للبلاد الإسلامية خالف كل ذلك، فلننظر ماذا فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر والمغرب ؟ وماذا فعل الاستعمار الإيطالي في ليبيا ؟ وماذا فعل الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية مع المسلمين؟ ومن نواقض هذه المادة في الإعلان إشهار حق الوصاية والاستعمار؟ فهل سلب أوطان الناس والتعدي عليهم وعلى خيرات بلادهم يتماشى مع مسوغات الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وما يتبعه من صكوك أخرى أم أن ذلك من نواقضه؟

إن الخطط الاستعمارية التي أدت إلى نجاح الاستعمار كانت محل دراسة وعناية الاستشراق لتسهيل المهمة العسكرية في إصابة الأهداف ، وهو تحقيق ما يسميه المستشرقون بالتعديل الثقافي والديني والحضاري لأمم وشعوب البلدان الإسلامية وهذا من أخطر أهداف التمييز الديني .

هكذا ظهرت قوة الاستعمار على البلاد الإسلامية التي توزعها المستعمرون فيما بينهم ، وفرقوها أجزاءً وأشتاتاً ليفسدوا في الأرض، ولكن الله لم يمكن لهم، إذ قاوم أهل البلاد من المسلمين ، وثارت ثورتهم ، وبدأت أوروبا تحس المناهضة الكبيرة من أبناء المسلمين المجاهدين لما عانوه من وحشية الاستعمار وظلم المستعمر، فرد الله كيد المستعمرين ودحروا ، ونالت الشعوب الإسلامية الاستقلال بعد أن ضمن المستعمرون النجاح في حرب أخرى، هي الغزو الفكري، الذي ترك في بلاد المسلمين قبل الخروج منها أتباعاً له فيها، يساعدون في تذليل الصعاب لتحقيق أهدافه ، والقضاء على الإسلام والمسلمين وعقيدتهم، وطمس هويتهم الثقافية والحضارية والتاريخية ولكن إن ربك لبالمرصاد.

لقد لجأ الغرب إلى حرب المسلمين بوسيلة هي أشد فتكاً ، وأكثر صلابة من حرب السلاح ، لجأوا إلى الحرب الفكرية التي تعمد إلى هز النفوس وقهرها ، وزعزعة الشخصية الإسلامية بقصد إحداث التخلخل في عرى الارتباط بالعقيدة

والتراث ، وبهذا قويت حركة الإستشراق ، واشتد عودها بعد أن نجحت الخطط الاستعمارية الأولى في تحقيق الوسائل التي لجأت إليها أوربا في الاستيلاء على البلاد الإسلامية ، وتقسيمها إلى شعوب قومية لا رابطة بينها ، وهكذا أصبحت حملات الاستشراق الفكرية أقوى من الحملات الصليبية الحربية ، وأقوى من الأسلحة المقاتلة، هذه حرب الغزو الفكري الذي يشبه التنصير، والذي قام على دعائمه الاستشراق، فكان من أهداف الاستشراق الأولى أن يحاولوا إطفاء نور الله سبحانه وتعالى في الأرض ، ولن يفلحوا أبداً ، ولو كرهوا ذلك ، لأن العليم القدير يقول : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[٤٤].

لقد عمد المستشرقون إلى استغلال الكراهية والتعصب الموجود لدى المسيحيين وأتباعهم منذ الحروب الصليبية وبمؤازرة اليهود، فعملوا على رد المسلمين عن الإسلام، وإجبارهم على الكفر، وقبول النصرانية أو اليهودية كدين أمثل وأفضل من دين الإسلام، وهذا ما يشير إليه معظم المستشرقون أنفسهم ، وهذا لون آخر من ألوان التنصير القائم على التمييز الديني، ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يتأتى لهم ، فقد تكفل الله بإتمام نوره ، قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٤٥].

ولعله من المناسب أن نورد هنا مقولة الرئيس الأمريكي نيكسون التي نشرتها مجلة الشؤون الخارجية في عددها الصادر عام١٩٨٥م ، حيث قال : «على روسيا

وأمريكا أن تشدا من أزرهما لمحاربة الأصولية الإسلامية»[٤٦]، إذا كان القصد من الأصولية الإسلامية الأفراد المتعنتين والمتعسفين من المسلمين فذاك مما لا يرضاه الإسلام ولا أهل الحق والعدل من المسلمين وغير المسلمين، ولكن إذا كان القصد كل المسلمين وهو جعل الناس يكفرون بالحق ليشرحوا صدورهم للباطل والكفر فذلك هو التمييز الذي قال عنه الله عز وجل: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[٤٧].

وإذا كان قصد المستشرقين هو التشكيك وإثارة الشبهات حول دين الإسلام وحول دعوة الرسول ﷺ، فإن هذا القصد ليس بجديد على الدعوة الإسلامية، فقد عرفت مثلها في مسألة التشكيك والقدح في الإسلام ورسوله ﷺ من قبل المشركين والكفار، منذ أن صدع عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام برسالته، التي قال المشركون عنها: «إنها إفك مفترى»، وإلى هذا يشير سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤٨].

وما قاله المشركون والكفار في العصور الغابرة مجملاً ومختصراً جاء المستشرقون ليفصلوا ما أجمل فيه، فلم يأتوا بجديد، إذ إن من طمس الله على قلبه في أي زمن من الأزمنة لا يقول إلا مثل ما قال الأولون. نعم لقد زعم المستشرقون الكثير من المزاعم التي أشارت إليها الآية، فهم يرون أن الإسلام في تشريعه أخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء وتطييب البيت الحرام، ونظام الأشهر الحرم، والحج والعمرة، وأخذ من الصابئة الصلوات الخمس، والصلاة على الميت، وتحريم الميتة ولحم الخنزير، وتحريم الزواج من القريبات، وأخذ من الهندية والفارسية قصة المعراج، والجنة والحور العين، وأخذ من اليهودية قصة

قابيل وهابيل، وقصة إبراهيم، وأخذ من النصرانية قصة أهل الكهف وقصة مريم العذراء. لقد جعل المستشرقون من الإسلام خليطاً مركباً من عدد من الديانات الوثنية والسماوية ، وكأنه جملة أساطير اكتتبها الرسول ﷺ، يقول المستشرق البريطاني وليم مونتجمري واط عن الرسول ﷺ: «إن محمداً كان شديد الثقة بنفسه ، وكان إذا حدثت حادثة في حياته واعتقد أنها صالحة لقومه فإنه يصوغ ذلك الأمر في كلام قرآني ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أوحى إليه فيقدمه للناس على أنه كلام الرب والمولى سبحانه وتعالى»[٤٩]، ويمكن للدارس المتتبع لمناهج المستشرقين ، وطرقهم في البحث والتأليف أن يتقصى أهداف الاستشراق بما تعود أن يفعله المستشرقون في كتاباتهم ، ويمكننا الإشارة إلى أن الخطة العامة والطريقة الرئيسة المتبعة عند معظم المستشرقين في التأليف والكتابة عن الإسلام التي تعتمد على معالجة موضوعات محددة لذاتها ، تشمل ما يلي :

١ــ حياة الرسول ﷺ سيرته ودعوته ونبوته .

٢ــ العقيدة الإسلامية ، وموضوعات التوحيد والشرك .

٣ــ الشريعة الإسلامية ، وتتناول دراسة القرآن ومسألة الوحي، وهل كتبه الرسول ﷺ أم كتب له ؟، والحديث وهل ذلك أقوال الرسول أم أقوال الصحابة؟

٤ــ الخلافة ونظام الحكم والبيعة والشورى وهل هما أصلح أم الديمقراطية؟

٥ــ الفرق المتعددة التي ظهرت بين المسلمين عبر التاريخ مع التركيز على فرق الرافضة والاهتمام بها .

٦ــ الحياة العقلية ، والحديث عن الفلسفة والمنطق والجدل ، وما يتصل بالعقائد.

٧ــ اللغة العربية وتراثها وآدابها .

٨ ــ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية .

وهكذا يمكن أن نلخص للقارئ الفكر الاستشراقي ، وما ينحصر فيه من أهداف في القول الآتي لإدوارد سعيد : « أصبح الإستشراق مسألة متفقاً عليها

بالإجماع ، أي بين جميع طبقات المفكرين والكتاب والأدباء ، أموراً محددة ، وأفكاراً معينة وأحكاماً ثابتة هي في نظر كل مستشرق الصواب كل الصواب»[٥٠]، ومن هذا المبدأ ، وبناءً على هذا الإجماع المتفق عليه سلفاً بين جميع المفكرين من أدباء ونقاد ومختصين في السياسة والاقتصاد وغيرهم ، ينطلق الفكر الاستشراقي في عمله. وهذه النظرة أكدها إدوارد سعيد بقوله: «إن معظم كتاب الخيال في عصر ما، أمثال فلوبير ونيرفال وسكوت، كانوا محدودين بما خبروه وما قالوه عن الشرق، ذلك أن الاستشراق في حد ذاته يقوم على نظرة سياسية أساسها التفريق بين المألوف «أوروبا والغرب أي نحن» وبين غير المألوف «الشرق هم»[٥١]، إذاً : « فلا شك في أن التنصير والإستشراق يلتحمان معاً في قيادة وتوجيه وتزويد حركة الاستعمار في كل أجزاء الشرق الإسلامي والعربي، أو العالم الإسلامي في كل مكان بالمعلومات، وإذا كان التنصير مدخل الإستشراق، أو هو سابق عليه ، أو مقدمة تمهيدية له ، فإن هذا التنصير بكل مؤسساته الطبية والهندسية والاقتصادية والتعليمية والثقيفية، قد استخدم نهج التعليم المدرسي في دور الحضانة، ورياض الأطفال، والمراحل الابتدائية والثانوية المشتركة بين الذكور والإناث، كما سلك سبيل العمل الخيري في إنشاء المستشفيات المتنقلة والثابتة ، والملاجئ الفخمة ، ودور اليتامى واللقطاء الواسعة ، بينما سلك الإستشراق نهج المقال ، والمحاضرة ، والكتاب المدرسي وكرسي التدريس في الجامعات»[٥٢]، وكل ذلك يعتمد على التمييز الديني وحرب الإسلام. والمعلوم أن المسيحية واليهودية ديانتان سماويتان نسختا بالدين الإسلامي ، يقول الكونت دي كاستري: « والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث، فنقول إن دين الأنبياء كان كله واحداً، فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد ، وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية هي الزبور والتوارة والقرآن، والقرآن بالنسبة للتوارة كالتوارة بالنسبة للزبور، وأن محمداً بالنظر إلى عيسى، كعيسى بالنظر إلى موسى. ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن

القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس ، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ﷺ»[٥٣]. هذا كلام علمي وموضوعي ، وإلا فأين آخر الكتب السماوية؟ وأين خاتم الأنبياء مما وردت البشارة والإشارة إليه في التوراة والإنجيل حتى الآن؟ قل هاتوا برهانكم، والله سبحانه وتعالى يقول :﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٥٤]، ويقول جل جلاله : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **« تجيء الأعمال يوم القيامة ، فتجيء الصلاة فتقول : يارب ، أنا الصلاة ، فيقول : إنك على خير ثم يجيء الصيام ، فيقول : أنا الصيام، فيقول : إنك على خير وتجيء الصدقة فتقول : يارب أنا الصدقة، فيقول : إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله : إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام، فيقول : يارب، أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول : إنك على خير ، بك اليوم آخذ وبك أعطي»**[٥٦].

قد يقول قائل: إن الإسلام فيه تمييز ديني ، ذلك أن من دخل الإسلام وأراد الخروج منه فإنه يقتل وإلا يُكْرَه ببقائه على دين الإسلام ويستشهد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٥٧]، إن هذه فرية وأغلوطة لم يعرفها البسطاء من أضلهم الله على علم ولا يعرفها فضلاً عن الجهلاء فكما بينا في ثنايا هذا المبحث تحريم الإسلام على إكراه الناس للدخول فيه بغير رضى وقناعة يكفي للتدليل على انتفاء هذه التهمة، ولكن لا بد من مزيد بيان في هذا المبحث مع ما سبق ذكره وما سيأتي تفصيله في مبحث حرية الرأي والتفكير، وفي المبحث الخاص بالعقوبات وحد المرتد، وكذلك ضمن الوثائق الملكية عن حقوق الإنسان وتحفظات المملكة على المادة التي تجيز تغيير الدين في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

إن الإيمان بالإسلام القائم على الجبر والإكراه غير معتد به، إذ لا يدخل الداخل فيه حقيقة إلا إذا كان عن قناعة ورضى وتبصر لتوافق الإسلام مع الطبائع السليمة التي فطر الله الناس عليها ، وفي تاريخ الإسلام الطويل ليس من حادثة تذكر أن مرتداً ارتد عن هذا الدين رغبة عنه وسخطاً عليه ، وقد ذكرنا سابقاً حادثة لقاء أبو سفيان قبل أن يسلم مع قيصر فسأله عن النبي محمد ﷺ وعن المسلمين، وفيما سأله قال: «أيرتد أحد عن دينه سخطاً عليه، قال أبو سفيان : لا ، فقال قيصر: فذلك الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب»، وإن وجد من يرتد فيكون ذلك أحد شخصين إما أن يكون لمكيدة يقصد بها الصد عن دين الله كما حصل من بعض اليهود في أول عهد الدعوة حينما تمالأ نفر منهم بأن يؤمنوا أول النهار ثم يكفروا آخره لإحداث البلبلة في صفوف المؤمنين، هذا لما قد يظنه ضعفاء الإيمان بأنه لو لم يتبين لليهود خطأ في هذا الدين الجديد لما رجعوا عنه ، فكان هدفهم الفتنة والصد عن دين الله، وإما أن يكون المرتد ممن يريد أن يطلق لشهواته العنان ويتحلل من ربقة التكاليف الإسلامية ، ثم إن الخروج عن الإسلام هو خروج على النظام العام كما في الأعراف والمواثيق الدولية، لأن الإسلام دين يهتم بعلاقة الإنسان بربه فهو يهتم بعلاقته مع غيره من الناس، ووالديه وزوجه وأقربائه وجيرانه، وكذلك أعدائه حرباً وسلماً في شمول منقطع النظير عبادة ومعاملة وجناية وقضاء إلى سائر ما تنقسم إليه قوانين الدنيا وأنظمتها، فالإسلام كل متكامل ، وليس قاصراً فقط على علاقة العبد بربه كما يظنه غير المسلمين، لذلك فالردة تعني الخروج على النظام العام والأمن العام للجماعة الإسلامية، وإذا كان غير المسلمين لا يريدون معرفة حكمة حد المرتد في الإسلام فلا عليهم إلا أن يفهموا ما جاء في كثير من الصكوك الدولية وأنظمة دول العالم التي تنزل أقصى العقوبات على من يقوم بالخيانة العظمى، لأن ذلك انتهاك للأمن العام أو النظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق العامة مما جاء النص عليه في الإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال

التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين والمعتقد الذي نشرته الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بقرارها رقم ٣٦/٥٥ في ١٩٨١/١١/٢٥م. وهذا الإعلان فيه ما يمنع ممارسة الإنسان لشعائر دينه إذا كان ذلك لا يحمي الأمن العام والصحة العامة .. الخ ، فما بالك بمن يعلن الردة علانية ليفتن الناس ويضر بالنظام العام والصحة العامة ، ولما كانت عقوبة المرتد في الإسلام هي القتل فإنما هي زجر لمن يريد الدخول في الإسلام مشايعة ونفاقاً للدولة أو لأهلها، لأن الإسلام جملة تكاليف وشعائر يتعسر الاستمرار عليها من قبل المنافقين وأصحاب المآرب المدخولة. والإسلام لا يكره أحداً على اعتناقه بغير رضى، فالإنسان قبل أن يؤمن بالإسلام له الحق في أن يؤمن أو يكفر، فإذا آثر أي ديانة من الديانات فلا اعتراض عليه، ويبقى له حق الحياة والأمن والعيش بسلام، وإذا آثر الإسلام ودخل فيه وآمن به، فعليه أن يخلص له ويتجاوب معه في أمره ونهيه وسائر هديه في أصوله وفروعه والتي منها حد المرتد قتلاً ولا أحد يكره أحداً على الإسلام . قال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[٥٨].

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى أن من دأب أهل الكتاب ، أن يعرضوا عن الحق بعد أن يتبيّن لهم، ولا يجدي معهم الدليل والبرهان، فدعوتهم إلى دين الإسلام الذي كان عليه إبراهيم والأنبياء بعده عليهم الصلاة والسلام لا تجد منهم آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية، ذكر الله تعالى هنا شأناً آخر، وهو أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين فلا يدعُون فرصة إلا انتهزوها بالتفنن في إلقاء الشبه في

نفوس المؤمنين، وقد كان النزاع بالغاً أشده بين الفريقين ولا غرابة في ذلك، فإن الدعوة إلى هذا الدين الجديد وجدت مقاومة من أهل الكتاب ومن المستشرقين.

أما أهل الكتاب فلأن فيه هدماً لدينهم كما يزعمون ، وأما المشركون فلأن للإلف والعادة سلطاناً على النفوس، وهذه الدعوة دكّت حصون المعتقدات التي توارثوها عن أسلافهم الغابرين، ووجدوا عليها آباءهم من قبل كما حكى الله عنهم بقوله جلا وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٥٩]، روى أن هذه الآية نزلت في اليهود حين دعوا حُذيفة وعماراً ومعاذاً رضي الله عنهم إلى اليهودية ليرتدوا عن الإسلام بقصد التشكيك في صدق نبوة الرسول ﷺ وسلامة هذا الدين .

إذن هل حرية المعتقد والخروج من دين إلى دين وتغيير الإنسان دينه حسب ما يهوى يُمَكِّنُ صاحبه من الخروج على المجتمع ونبذ قواعده ومشاقّة مواطنيه؟ هل خيانة الوطن أو التجسس لحساب الأعداء من الحرية والحقوق المطلقة؟ هل إشاعة الفوضى في جنبات المجتمع والاستهزاء بشعائره ومقدساته من الحرية والحقوق المطلقة؟ كل ذلك من نواقض الحياة والأمن العام والنظام العام للمجتمع التي يرفعها المدافعون عن حقوق الإنسان لإقناع المسلمين بقبول هذا المبدأ في حكم الردة ، ومطالبة المسلمين بتوفير حق الحياة لمن يريد نقض بناء دينهم وتنكيس لوائه، إنه شيء عجيب وأمر مريب.

ونقول بكل قوة : إن سرقة العقائد والنيل من الأخلاق والمثل أضحت حرفة لعصابات وطوائف من أعداء الإسلام الكارهين للإسلام وشريعته الثابتة على الحق، وما فتئوا يثيرون الفتن وأسبابها في كل ناحية من أجل هز كيان حياة المسلمين والإساءة إلى دينهم، ويؤكد حقنا نحن المسلمون في رفع الصوت عالياً ما نرمقه من المواقف المفضوحة في البلاد التي تدعى الحريات، من المسلمين الذين بدأوا يظهرون تمسكاً بدينهم وظهورهم بالزي المحتشم رجالاً ونساءً مما أثار حفائظهم ،

على الرغم من أن قوانينهم فيها نصوص تعطي الحق لأهل كل ديانة أن يلتزموا بدياناتهم ، ولكنهم بحجة الأمن والحفاظ على النظام العام كانت لهم تلك المواقف المكشوفة، ومن حقنا كذلك أن نتذكر ما يجري لكثير من الأقليات المسلمة في بعض دول العالم مما هو معلن ، فكيف بغير المعلن[٦٠]. ولعل ما اتخذته بعض الدول من سن قوانين وتشريعات جديدة عن حقوق وحدود الأقليات والجاليات ـ خصوصاً المسلمة فيها ـ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م للحفاظ على الأمن والنظام العام للجماعة يؤكد حكم الإسلام في عقاب المرتد وإعدامه.

ثم إن عقوبة الإعدام موجودة في كثير من القوانين المعاصرة ، سواء لمهربي المخدرات أو غيرهم ، والدول التي تطبقها تعرف وتعلم علم اليقين جدوى تلك العقوبة في القضاء على الجريمة والتخفيف منها، وفيها حماية لعموم المجتمع من سوئها ، ولم يقل أحد أن تشريع عقوبة الإعدام في حق هؤلاء المفسدين مصادم لحريتهم إذا كانوا قد تجاوزوا حرياتهم حتى سطوا على حريات الآخرين أو نغصوا عليهم حياتهم الطبيعية الآمنة السوية . وهناك إعدام من أجل الخيانة العظمى أو ما يشبهها ، ولم يكن هذا مصادماً للحرية أو محل نقد لدى المؤسسات التنصيرية وأشباهها ، مما يذكر بما قلناه أول الحديث من الشك في حسن النية في إثارة مثل هذه التساؤلات.

وتظهر مواقف الديانات الأخرى من المسلمين الكثير من التعسف والتعصب والحقد الذي يظهر واقعاً حياً حين تتاح له فرصة الظهور يقول الكاتب جيبون : «إن الصليبيين خدام الرب يوم استولوا على بيت المقدس في ١٠٩٩/٧/١٥م رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم ، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء في مذبحة استمرت ثلاثة أيام بلياليها، حطموا رؤوس الصبيان على الجدران، وألقوا الأطفال الرضع من سطوح المنازل، وشووا الرجال والنساء بالنار، وبقروا البطون ليروا هل ابتلع أهلها الذهب»[٦١]، ثم يقول الكاتب: «كيف ساغ

لهؤلاء بعد هذا كله أن يتضرعوا إلى الله طالبين البركة والغفران»[٦٢]، ويتحدث غوستاف لوبون عن فعل الصليبيين بمسلمي الأندلس فيقول: « لما أجْلي العرب (يعني المسلمين) سنة ١٦١٠م اتخذت جميع الذرائع للفتك بهم فقتل أكثرهم ، وكان من قتل إلى ميعاد الجلاء ثلاثة ملايين من الناس، في حين أن العرب لما فتحوا أسبانيا تركوا السكان يتمتعون بحريتهم الدينية محتفظين بمعاهدهم ورئاستهم، وقد بلغ من تسامح العرب طوال حكمهم في أسبانيا مبلغاً قلّما يصادف الناس مثله هذه الأيام»[٦٣]، وفي أيامنا هذه نقرأ في وثائق اليهود نحو أهل فلسطين : «يا أبناء إسرائيل، اسعدوا واستبشروا خيراً ، لقد اقتربت الساعة التي سنحشر فيها هذه الكتل الحيوانية في إصطبلاتها ، وسنخضعها لإرادتنا ونسخرها لخدمتنا»[٦٤]، وفي روسيا الشيوعية أغلقت الحكومة أربعة عشر ألف مسجد في مقاطعة تركستان وفي منطقة الأورال سبعة آلاف مسجد، وفي القوقاز أربعة آلاف مسجد، وكثير من هذه المساجد حولت إلى دور للبغاء وحوانيت خمر وإصطبلات خيول وحظائر بهائم ، وفوق ذلك كانت هناك التصفية الجسدية للمسلمين ، ويكفي أن نعلم أنهم قتلوا في ربع قرن ستة وعشرين مليون مسلم ، مع تفنن في طرق التعذيب والقتل . والدول الشيوعية الدائرة في فلك روسيا حذت حذوها ، ففي يوغوسلافيا أباد تيتو ما يقارب مليون مسلم، وهكذا فعل مجرموا الحرب في وقتنا الحاضر أمثال مليوفيتش وكراديتش في حرب البلقان مع الألبان والبوسنة والهرسك وكسوفو .. الخ .

أما نظرة النصارى إلى اليهود والعكس فلعلنا نعرض إلى الفكر النصراني للكاتب الإنجليزي شكسبير الذي شحذ جل قدراته الفنية والفكرية في تصوير اليهود بأسوأ الصور ، وأظهرهم بأقبح المظاهر ، ونعتهم بأشين الأوصاف منطلقاً من مفهوم كلمة «يهودي» Jew في الأدب الإنجليزي، منذ أن عرفت تلك الكلمة في في اللغة الإنجليزية مطلع القرن الثاني عشر في إنجلترا، فهي تستخدم بمعنى السبّ أو الشتيمة Abuse والانتقاص ، والتحقير والازدراء ، وقد كانت تستخدم بصيغة

اسم وفعل وصفة، وكانت كلمة«يهودي» في عصر شكسبير تعني Opprobrium أي العمل المخزي، والسلوك المنحط المشين ، وهي كلمة عار، ولهذا استخدم شكسبير كلمة «يهودي» و«عبراني» ساخراً متهكماً ، مزدرياً اليهود واليهودية بأهداف سياسية وطنية دينية ، أهمها الهدف الديني الذي يقصد به علو النصرانية وسموها بنوع من التمييز الديني، واعتبار النصرانية الدين الأصلح دون سواها، وإننا إذ نتحدث عن صورة اليهود في مسرحيات شكسبير مما تحدثنا عنه كثير في كتابنا : (اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير) ما هو إلا بيان معارضة اليهود لكل أمر يصادم مصالحهم وإن كان حقاً حتى لو ورد في كتب الأدب والخيال. ثم إن اليهود يضمرون كرهاً شديداً لشكسبير ويحاربون إنتاجه العلمي في أوروبا وأمريكا، ووصل بهم الأمر إلى تحريم تدريس مسرحياته في أمريكا كما سنوضحه أدناه، فما بالك لو كان ذلك في وحي يوحى، وقد سبق أن بينا في الموسوعة كيف أن الإسلام يعترف بنبوة عيسى وموسى عليهما السلام في الوقت الذي تنكر فيه نبوة محمد ﷺ ، وهذا الجزء من الموسوعة فيه تغيير نوعي في عرض الموضوع من منظور التمييز والعنصرية وتتميم لما سبق في قضايا التمييز الديني الموجودة في غير كتب الدين والتاريخ .. إلخ، أي في كتب الأدب وليس المقصود مادة الأدب بذاتها ولكن لبيان مدى تجذُّر التمييز الديني حتى في كتب الأدب عند النصارى. فهذه بعض الأمثلة لما ورد في بعض مسرحيات شكسبير إذ يرى في مسرحية (تاجر البندقية) أن : «اليهودي العبراني لا يستحق أن يكون مسيحياً»[٦٥]، ولقد جعل شكسبير شعور الاستنكاف عند شايلوك في مسرحية (تاجر البندقية) واستعلاءه في مؤاكلة المسيحي ومشاربته والصلاة معهم مدخلاً يحكم به على انتقاص اليهود وذمهم ، والقدح فيهم ، خصوصاً عندما صرح شايلوك بكرهه للنصارى في الحوار الآتي من المسرحية:

بسانيو : هذا السيد أنطونيو .

شايلوك : (قائلاً لنفسه) ما أشبه بلعشار الذليل إذ يظهر على وجهه المرائي

التقوى، إنني أبغضه، لأنه مسيحي أبله أخرق[٦٦].

وتظهر صورة الانتقام في مطالبة شايلوك بتطبيق شروط الصك ، وهو أن يأخذ شايلوك رطلاً من اللحم من جسد أنطونيو ، وقد حاول أصدقاء أنطونيو تخليص صديقهم من تلك الورطة ، فوصفوا شايلوك «بالعدو اللدود» ، الذي قال عنه دوق البندقية في نص المسرحية :

« إني آسف لما أصابك ، وإنك لتواجه خصماً قُدَّ قلبه من الصخر ، مجرد من الإنسانية ، فاقد الإحساس بالشفقة ليست لديه ذرة من العطف والرحمة»[٦٧].

ويجيب أنطونيو على ذلك مؤكداً قسوة اليهود:

«أرجوك أن تتذكر أنك تناقش يهودياً : إنه لأسهل عليك أن تتوجه إلى الشاطئ، لتأمر ماء المحيط أن يخفض من ارتفاعه ، أو في وسعك أن تسأل الذئب لم أَبْكَ النعجة بافتراس صغيرها؟ بل وفي مقدورك أن تمنع أشجار الصنوبر الجبلية من تحريك أغصانها العالية فلا تحدث صوتاً إذا هبت عليها عواصف السماء ، إذا كان في وسعك أن تفعل كل شيء مهما صعب ، فإنه ليس في وسعك أن تلين قلب اليهودي الذي لا نظير له في قسوته»[٦٨]، إن قلب اليهودي مليء بالحقد مقابل قلب المسيحي، كما يصوره شكسبير وأن المسيحي أطيب قلباً ، واليهودي يستحق الإهانة كما كان يفعل أنطونيو[٦٩]، كما يتضح في الحديث الآتي لشايلوك مع أنطونيو :

شايلوك: «ياسيدي أنطونيو ، كم مرة قابلتني في الريالتو فسخرت مني بسبب أموالي وكيفية استخدامي لها ؟ وكنت على الدوام أقابل تلك السخرية بأن أهز كتفي في صبر وتجلد : ذلك أن الصبر هو شعار أمتنا عن بكرة أبيها ، إنك تدعوني كافراً وكلباً مسعوراً ، وتبصق على عباءتي»[٧٠].

أظهرت العبارة السابقة كيف أن شكسبير خرج من دائرة التلميح إلى دائرة التصريح في وصف اليهودية واليهود ، واعتبر اليهود على غير دين وأنهم كفار ، وأن دين اليهود دين الشيطان ، كل ذلك كان يأتي في ثنايا المسرحية ليتدرج

شكسبير بالقارئ ليؤكد صدق المسيحية والدعوة إلى اعتناقها ، وهذا ما تضمنته مسرحية (تاجر البندقية) في عدد من المواطن ، خصوصاً في مشهد محاكمة شيلوك[٧١] ، ففي أحد المشاهد التي كان لونسلو يودع فيها ابنة شايلوك ليترك خدمة والداها يقول : «وداعاً هذه دموعي تفصح عن مشاعري التي أعجز الحزن لساني عن تبيانها يا أجمل كافرة ويا أحلى يهودية»[٧٢]، ثم يقول : «فإذا حسن تقديري ، فإنه سيأتيك مسيحي حذق ليخطفك، وداعاً»[٧٣] ، ومن شعور الأسى والحزن الذي داخل قلب لونسلو ،خطط هو وبعض أصدقاء لورنزو أمراً بليل لاختطاف جيسكا ابنة شايلوك والهروب معها ، التي أصبحت نصرانية بفضله كما توضح أحداث المسرحية لاحقاً، وهكذا أدى شكسبير هدفه بأن جعل هذه اليهودية تعتنق النصرانية، بل وفي مشهد المحاكمة في مسألة القرض، وفي بهو المحكمة عندما أدين شايلوك بجريمته نحو المسيحيين حسب قوانين البندقية المسيحية، فيما إذا حاول أجنبي القضاء على حياة مواطن بطريق مباشر أو غير مباشر، فإن من حق الطرف الذي بذلت تلك المحاولة ضده أن يصادر نصف ممتلكات الآثم، أما النصف الآخر فيصبح حقاً خاصاً لخزانة الدولة ، وعن حقه لدى شايلوك وهو نصف أملاكه، اشترط أنطونيو ألا يقبل منه ذلك إلا إذا اعتنق النصرانية ، فيقول:

انطونيو: «إذا رضي سيدي الدوق ، وهيئة المحكمة أن يعفيني من توقيع الغرامة الخاصة لنصف أملاكه فإني أرضى بهذا، ومن ثم سيكون لي النصف الآخر من هذه الأملاك ، لأعطيه لدى وفاته إلى السيد الذي اختطف ابنته أخيراً : ولي شرطان آخران : أن يعتنق في نظير هذا الفضل الدين المسيحي أمام المحكمة ، والثاني : أن يقدم على سبيل الهبة كل ما يكون لديه عند وفاته إلى ابنته وإلى زوجها لورنزو»[٧٤]، ومن هذا المنطلق تنفرج عقدة القصة بالتسرية عن المسيحيين ، الذين يريدون أن يكثر سوادهم عن طريق المسيحية واعتناق الناس لها ، وهذا ما جاء في صورة ضاحكة وفرحة غامرة في إحدى مشاهد المسرحية خلال الحديث الذي دار بين

جيسكا ولونسلو:

جيسكا : سينقذني زوجي ، فلقد صرت بفضله نصرانية

لونسلو : والحق إنه لذلك أشد استحقاقاً للوم: فلقد كان عددنا نحن النصارى كثيراً قبلك ، لقد بلغنا أقصى عدد يستطيع العيش معه ، فالإكثار في تحويل الناس إلى المسيحية سيرفع أسعار الخنزير»[٧٥].

هكذا يبدو السرور من إدخال الناس إلى النصرانية واضحاً في العبارة السابقة ، والتي هي هدف ومقصد عند شكسبير وهو مبدأ التمييز الديني الذي تسلكه بعض دول الاستكبار ومن شايعها ضد الإسلام والمسلمين.

لقد أوجع شكسبير اليهود في حديثه عنهم في كثير من مسرحياته مما ذكرناه في كتابنا: (اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير) للنصارى كما ترى نظرتهم نحو شكسبير على سبيل المثال، ليس موقف المتخاذل المشوب بالتعظيم والتمجيد لكاتب أساء إليهم وإلى دينهم مع أنهم على ضلال وباطل وعلى مهانة وسوء، بما ضربه الله عليهم من الذلة والمسكنة، يقول نبيل راغب: « يضمر الإسرائيليون الكثير من الحقد والكراهية للشاعر الإنجليزي وليم شكسبير، بسبب تجسيده لكل مخازيهم وأطماعهم وأغراضهم الدنيئة في شخصية شايلوك بطل مسرحية (تاجر البندقية)، وفي النصف الثاني من القرن الحالي، بدأت حربهم الخفية كعادتهم ضد شكسبير، وذلك بمحاولتهم الوقوف في وجه أية محاولة لإخراج هذه المسرحية ، سواء على مسارح أوروبا أو أمريكا، حتى المسارح الكلاسيكية في لندن ، مثل مسرح جلوب ودروري لين والأولدفيك، فلم تقدم مسرحية (تاجر البندقية) منذ حوالي نصف قرن حتى صيف عام ١٩٨٨م وصيف عام ١٩٨٩م، برغم تخصصها في تقديم مسرحيات شكسبير ، سواء التراجيدية أو الكوميدية التي أنتجتها قريحة شكسبير ، ومع ذلك نجح الإسرائيليون ـــ كعادتهم ـ في دفنها بالحياة، بل إن الأمر تعدى هذه الحقيقة إلى كليات الآداب في جامعات أوروبا وأمريكا ، حيث أصبح من النادر أن يدرس

طلبة الأدب الإنجليزي هذه المسرحية ضمن أعمال شكسبير المسرحية، وإذا حدث أن ذكرت، فمجرد إشارة عابرة ، فالأساتذة يخشون التركيز على هذه الكوميديا مخافة أن يتهموا بمعاداة السامية وبالتالي فالطرد من الجامعة ، وهو أقل عقاب يمكن أن يحيق بهم»[٧٦]، هكذا كتب اليهود على النصارى أن يدفنوا أعمال شكسبير بالحياة وذاك قتل لحرية الفكر في صورة معنوية، فإذن فلماذا لا يسمح لأهل الدين الحق دين الإسلام تطبيق عقوبة الإعدام في حق المرتد عقاباً لإساءته لدين الحق؟ أليس ذلك هو من حرية الدين ؟ أم أن الأمر حق وحرية للمرتد إذا ما كان الأمر يخص الإسلام، ولا يكون ذلك إذا كان الأمر يخص الأديان الأخرى.

إن اليهود يتخذون من فكرة السامية ستاراً يختفون وراءه مع أن العرب ونبي الإسلام محمد ﷺ العربي هو من الساميين، إنهم يفعلون ذلك ليوهموا غير الساميين ومعظمهم من النصارى أنهم جنس مضطهد وأمة مهانة ، وإذا ما تعلق الأمر بساميين مثلهم مثل العرب ومنهم المسلمين قالوا: كونوا هوداً تهتدوا ، فيلاحظ أنه مع بداية القرن التاسع عشر كان اليهودي يصور في القصص الإنجليزي إما على صورة اليهودي التائه ، أو على صورة شايلوك، وباسم السامية وبقوة نفوذ اليهود في أوروبا وأمريكا انطلاقاً من مبادئ الحقوق ليهود أمريكا ، الذي تمخضت عن تشكيل الكهيلا واللجنة اليهودية عام ١٩٠٦م ، نجح اليهود في محاربة تدريس مسرحية (تاجر البندقية) في أكثر من مائة وخمسين مدينة أمريكية ، ففي عام١٩٠٧م تمكن اليهود من إرغام المدارس في ولاية تكساس من إسقاط مسرحية (تاجر البندقية) من البرامج التعليمية ، كما أن الحاخامين في عام ١٩١١م وفي عام ١٩١٧م منعوا تدريس مسرحية (تاجر البندقية) في مدينتي هاتفورد ونيوهافن بولاية كنتيكوت ، بل امتد المنع إلى جميع ملخصات تشالزرلامب لمسرحيات شكسبير ، كما أنه في عام ١٩١٩م أرغمت لجنة مكافحة المهاترات عشرات المدارس بأمريكا على عدم تدريس شخصية تاجر البندقية بمدارسها العامة[٧٧].

ومما ساعد اليهود على محاربة مسرحية (تاجر البندقية) بسهولة ويسر في أمريكا اعتبارهم لها بأنها ليست من التراث الأدبي للشعب الأمريكي ، ولأن كاتبها إنجليزي ، وامتد نجاح اليهود في محاربة هذه المسرحية إلى بريطانيا وكان يتم هذا النجاح تحت قوة الإرهاب اليهودي المتمثل في التمييز الديني والعنصري اليهودي بقتل الأبرياء كما يصور الأمر نبيل راغب فيقول:« وعندما كنت في لندن، تعرفت على مخرج مسرحي متعاطف مع القضية العربية إلى أقصى حد، وخاصة بعد زيارته لمصرفي أغسطس عام١٩٦٢م مع فرقة الأولدفيك التي قدمت عرضين على مسرح أبي الهول بالهرم (رميو وجوليت) لشكسبير، والثاني (القديسة جون) لبرناردشو ، وهذا المخرج يدعى جورج هاو ، وقد قاد الكورس في مسرحية (روميو وجوليت)، قال لي : «إنه وقع في حب مصر وشعب مصر وجو مصر منذ تلك الزيارة ، ويود لو أتيحت له الفرصة لزيارتها مرة أخرى، وتقديم مسرحيات جديدة على مسرح أبو الهول ، وتطرق بنا الحديث إلى مسرح شكسبير ، فقال لي: سأقول لك سراً خطيراً ، لم يذع حتى الآن في الصحف أو المجلات، وأعتقد أنه لن يذاع، ولكن الوسط المسرحي في لندن يعرفه تماماً ، برغم أن أحداً لا يثرثر عنه ، نظراً للنفوذ الصهيوني الخطير على المسرح الإنجليزي ، والسر هو أن عميد المسرح البريطاني السير لورانس أوليفيه فكر منذ أكثر من عدة سنوات في إخراج مسرحية (تاجر البندقية) على خشبة المسرح الملكي البريطاني ، ووقفت زوجته السابقة فيفيان لي خلف الفكرة بكل قوتها وحماستها ، على أساس أن يقوم السير نفسه بدور شايلوك ، وبالطبع فإن الدوائر الصهيونية علمت بالخبر كعادتها ، وفجأة وجدنا السير لورانس أوليفيه يعدل عن إخراج الفكرة إلى حيز الوجود ، بل إن الأمر لم يقتصر على ذلك ، إذ طلق زوجته ورفيقة عمره فيفيان لي في ظروف غامضة ، وتزوج من ممثلة ناشئة تدعى جوان بلورايت تصغره في السن والعقلية والنضوج ، وقد اكتشفنا فيما بعد أن هذه الممثلة تنتمي إلى أصل يهودي ، ولم يقتصر انتقام

الصهيونية من فيفيان لي على هذا الحد ، بل نجدها تموت بالتهاب رئوي في ظروف غامضة أيضاً بعد الطلاق بسنتين فقط»[٧٨]، هكذا كان موقف اليهود من شكسبير، برغم أن النصرانية نسخت اليهودية كما نسخ الإسلام اليهودية والنصرانية معاً، إذن ما تقدم ما هو إلا نماذج وصور للتمييز الديني النصراني .

اليهودية والتمييز الديني

إن اليهود لا يقبلون أن يمسهم أحد من قريب أو بعيد لأنهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ، وما فعله شكسبير كما يظنون إنما كان اضطهاداً لهم ، حتى وإن جاز أن يكتب شكسبير جدلاً عن اليهود واليهودية بالكيفية التي كتب عنها ، ويدعو أولئك القوم إلى اعتناق النصرانية على أساس أن المسيحية نسخت اليهودية ، كما نسخ الإسلام اليهودية والمسيحية معاً ، كما هو جلي في بشارة عيسى عليه السلام بنبوة الرسول محمد ﷺ ، قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٧٩]، وعنه ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد، قال: حدثنا لقمان بن عامر، قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يارسول ما كان بدء أمرك ؟ قال : **«دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»**[٨٠]، وهو النبي الأمي الذي ورد ذكره في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٨١]، ومع ما ذكر عن هذا النبي محمد ﷺ إلا أن اليهود كما يمارسون التمييز الديني في حق النصارى فهم يمارسونه في حق المسلمين وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى.

ولنتقصىً حقائق التمييز الديني عند اليهود كما جاءت في كتب تراثهم ومعتقداتهم في إنكار حقوق أصحاب الأديان الأخرى ، ولذلك فإن دراسة هذه القضية المعقدة والمعضلة في الثقافة الغربية، تقتضي رؤيتها مقارنة بالرؤية الإسلامية للآخر، لا لمجرد المقارنة وهي مطلوبة وإنما ليعرف الناس من ينكر من؟ ومن الذي يعترف ويتعايش مع كل الآخرين؟، ومن الذي يجحد ويسعى لاستئصال كل الأخرين ، وفي المقدمة استئصال الإسلام والمسلمون؟، سنورد هذه الحقائق بشيء من التصرف كما جمعها وبوبها الدكتور محمد عمارة في كتابه: (الإسلام والآخر، من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من؟).

إن الرؤية الإسلامية العقدية والفكرية والشرعية تجسدت في تاريخنا الحضاري واقعاً معاشاً عبر القرون، ترى أن الأصل والسنة والقاعدة هو التنوع والتمايز والاختلاف ، فالوحدانية والأحدية فقط للذات الإلهية ، وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف، ذلك هو القانون التكويني الذي يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، في الإنسان والحيوان والنبات، والجماد والجان. وفي الأفكار والشرائع والأحكام والسياسات، وفي الشرائع والملل والديانات والنحل. حقاً لقد بدأت الإنسانية أمة واحدة، ثم صارت شعوباً وقبائل، ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٨٢] ، وهذه التعددية هي سنة كونية، وآية من آيات الله سبحانه وتعالى كما يقول في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٨٣] ، ومع سنة وقانون التعددية في الشعوب والأمم والقبائل، ترى الصورة الإسلامية للعالم أن الأصل في تنوع الإنسانية في الألسنة واللغات ومن ثم القوميات وكذلك في الأجناس والألوان ، وهو تنوع يبلغ مرتبة «الآية» من آيات

الله ، قال تعالى﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[٨٤].

يقول الباحث والمفكر الأمريكي هارولد سمث: « يعد الفرد في الإسلام مهماً لأنه من القوة الأخلاقية وفي العرف الإسلامي تصور آخر يتعلق بالفرد في الجماعة ويمنح الناس وسيلة للترابط ، وإحساساً بالاتحاد لا يوجد أحياناً في التصورات الغربية الحديثة للإنسان. هذه الشخصية المتحدة يعمل على تكوينها التصور الخاص (بدار الإسلام) أي تآخي المؤمنين. وليس هذا التصور مجرد تفكير نظري، إنه واقع محسوس يضفي على كل مسلم شعوراً بالترابط الوجداني في سمع كل مسلم آخر ، كما يهبه إحساساً بالأمن . فهو ينتمي إلى كلٍ يعلو على فروق اللون، والطبقة، والجنسية (بالمعنى الغربي للكلمة)، ونظم الدولة. إنه يستطيع أن يحس بأنه في داره في أرض شاسعة متناثرة من الساحل الأطلنطي لأفريقيا إلى قلب المحيط الهادي، حيثما كان الإسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة. كل هذا يخلق، أو هو قادر على أن يخلق ، روحاً جماعياً ، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة، وينبغي أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامي أو أي قسم من أقسامه ، مصدراً غير إسلامي، إن هذه الرابطة قوة حقيقية وفي الإمكان أن تصبح عامل تقوية في العالم الإسلامي كله»[٨٥] .

ولذلك لا ينكر الإسلام التنوع القومي، لأن القوميات هي « دوائر لغوية» للتنوع اللغوي ومن ثم القومي هو سنة من سنن الله لا تبديل لها ولا تحويل ، لذلك الإسلام يعترف بالآخر القومي ، سواء في إطار الجامعة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، أو في الدوائر الحضارية الإنسانية الأخرى، يعترف الإسلام بهذا الآخر لأنه إنسان له حقوق، ومن ثم يتعارف عليه، ويتعايش معه ، لا كمجرد واقع لا فكاك منه، وإنما باعتبار هذا الاعتراف وهذا التعارف سنة من سنن الله ، سبحانه وتعالى، وإرادة تكوينية لخالق هذا الوجود في محيطه الإنساني. ومع هذا التعدد

والتنوع والاختلاف في الشعوب والأمم والجماعات ، وفي اللغات والقوميات، وفي الأجناس والألوان، هناك سنة وآية وقانون التنوع والتمايز والاختلاف في الشرائع والملل الدينية ، وفي المناهج والثقافات والحضارات، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٨٦] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[٨٧] .

وهذه الصورة الإسلامية للوجود ، بعوالمه المختلفة ، والقائمة على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف والتعارف والتعايش، لم تقف عند الموقف « النظري» الذي يعترف بالآخر على مضض والذي يضيق بواقع التعدد والاختلاف، والتسليم بوجوده ، وإنما بلغت وتبلغ هذه الصورة الإسلامية في التحضر والرقي حد العدل والإنصاف لهذا الآخر ، على اختلاف ألوان هذا الآخر. فعلى حين يقف إيمان اليهود عند اليهودية وحدها، مع إنكار وتكفير ونفي جميع الآخرين، وعلى حين تصنع مذاهب النصرانية ذلك أيضاً مع كل الآخرين فالإسلام ليس فيه هذا التمييز الديني وهكذا حكى القرآن الكريم عن اليهود والنصارى فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[٨٨]، ففي هذا إنكار لحقوق الله، ثم إنكار لحقوق الأنبياء والرسل وهو في نفس الوقت إنكار للحقوق الدينية للآخرين استناداً إلى مبدأ الاستعلاء والتمييز الديني، فهل هناك أي مناقض للإعلان العالمي لحقوق الإنسان أكثر من هذا الاستعلاء؟ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[٨٩]، ففي الوقت الذي ينكر كل الآخر وينفيه ، يتفرد الإسلام والمسلمون بالاعتراف بكل الشرائع والملل وجميع النبوات والرسالات، وسائر الكتب والصحف والألواح التي مثَّلتْ وحي السماء إلى جميع الأنبياء والمرسلين منذ فجر الرسالات

السماوية وحتى آخر وخاتم هذه الرسالات ، وفوق هذا الاعتراف هناك العصمة والإجلال لكل الرسل وجميع الرسالات، قال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[٩٠] .

والإسلام هو الذي يؤكد على أنه قد جاء مصدقاً لكل وحي الله إلى جميع الرسل والأنبياء، وهو الوحيد الذي يذكر صراحة وباللفظ، هذه الكتب السماوية صحف إبراهيم، وتوراة موسى وألواحه، وزبور داود، وإنجيل عيسى، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٩١] ، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٩٢] .

« فقانون الإيمان» والحقوق الدينية لدى كل ملة غير ملة الإسلام لا يكتمل إلا بإنكار كل الآخرين والتمييز بينهم، والدين الإسلامي وحده هو الذي لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه النبوات والرسالات، بل ولا يكتمل هذا الإيمان الإسلامي إلا إذا مكن المسلمين أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم المخالفة للإسلام، بل حتى التي تنكر وتجحد الإسلام ، فالإسلام وحده هو الذي لا يقف اعترافه بالآخر عند الآخر الذي يعترف بالإسلام وليس في الآخر الديني من يعترف بالإسلام ديناً ، ونبي الإسلام رسولاً، بقرآن الإسلام وحياً إلهياً ، وإنما يتفرد الإسلام بالاعتراف بالآخر الذي يجحده وينكره. وما على الذي يريدون المقارنة بين صورة الآخر في الثقافة الإسلامية ، والعقيدة الإسلامية،

والوجدان الإسلامي ليدركوا هذا البون الشاسع والتناقض الفاحش بين هذه الصورة وبين صورة الإسلام والمسلمين في ثقافة الآخر غير المسلم، ما على هؤلاء إلا أن ينظروا إلى صورة الآخر في ثقافة الإسلام والمسلمين، وثقافة غيرهم مما سيأتي بيانه في هذا المقام وللننظر في تراث اليهود وما كتبوه هم أنفسهم عن نظرتهم للآخر جنساً ودیناً، فقد بين إسرائيل شاحاك في كتابه: (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) فقال : « كان ابن ميمون ينكر استطاعة قطاعات مختلفة من بني البشر بلوغ القيمة الدينية العليا ، والعبادة الحقيقية للرب، ومن هؤلاء بعض الترك (أي العرق المغولي) والقبائل الجوالة في الشمال، والسود، والقبائل الجوالة في الجنوب، ومن يشبهونهم بيننا (أي في العالم الإسلامي حيث كان يعيش) لأن طبيعتهم مثل طبيعة الحيوان الأبكم ، فهم أدنى مرتبة من الكائنات الإنسانية ، ومرتبتهم بين الكائنات الحية أدنى من الإنسان، وأعلى من القرد ، لأن هيئتهم أقرب إلى الإنسان منها إلى القرد»[٩٣].

ومن عقائد «الحركة الحسيدية» التي هي استمرار للصوفية اليهودية ، والتي لديها مئات الآلاف من الأتباع ، الذي أحرز بعضهم نفوذاً سياسياً كبيراً في إسرائيل، ويتواجدون بين قادة معظم الأحزاب السياسية ، وحتى في المراتب العليا للجيش يعتقدون: « إن كل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أي شيء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي، كما أن وجود غير اليهودي مسألة غير جوهرية في الكون، فقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط»[٩٤]، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[٩٥]، وعنصرية اليهود ظاهرة في طهارة المرأة ، « فالمرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسي الشهري من أجل الطهارة، يجب أن تحاذر ملاقاة أحد أربعة كائنات شيطانية: أحد الأغيار، أو خنزير، أو كلب، أو حمار، وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام

مرة ثانية»[٩٦]، وهذه العنصرية موجودة حتى عند الملاحدة واليساريين اليهود، ولا يحسبن أحد أن هذه العنصرية التي لا نظير لها في التاريخ البشري والفكر الإنساني قد وقفت عند اليهود المتدينين الذين يحتكمون إلى المصادر الدينية وإلى فتاوى الحاخامات ، فلقد تحول هذا الفكر «الديني» اليهودي إلى «ثقافة» انتمى إليها تقريباً كل اليهود ، حتى أولئك الذين اختاروا الإلحاد في الدين، أو انتموا إلى الحركات اليسارية اللادينية، فكل اليهود المتدينين والعلمانيين في هذه العنصرية المتوحشة سواء، ويشهد على هذه الحقيقة البشعة المفكر والكاتب اليهودي إسرائيل شاحاك فيقول: « إن دراسة الأحزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية تقدم العديد من الأمثلة حول شوفيين وعنصريين يهود مقنعين ، انضموا إلى تلك الأحزاب لأسباب تتعلق « بالمصلحة اليهودية » وهم يؤيدون التمييز الموجه ضد الأغيار، أما «الكيبوتس» وهي مؤسسة عمالية اشتراكية، إنما تمثل مؤسسة عنصرية مغلقة بوجه غير اليهود من مواطني إسرائيل»[٩٧]، ورغم أن هذه العنصرية المتوحشة قد كانت السبب الأول بين أسباب النبذ والاحتقار والاضطراب التي حلت باليهود، عبر تاريخهم وخاصة في إطار الحضارة الغربية، إلا أن ذلك لم يجعلهم يراجعون هذا الفكر العنصري، وإنما زادهم ذلك استمساكاً بالعنصرية، ونفاقاً يخفون به هذه العنصرية عن أعين الرقباء في فترات الاستضعاف، مبررين هذا النفاق والكذب بالعديد من المبررات، وعن هذه الحقيقة يقول إسرائيل شاحاك : « إن اليهود يكذبون بدافع الوطنية، اعتقاداً منهم أن من واجبهم الكذب لصالح مصلحة اليهودية . أولئك كَذَبَةٌ وطنيون، ترغمهم نفس الوطنية على الصمت عندما يشاهدون التمييز والقمع ضد الفلسطينيين»[٩٨] .

وأمام رقابة الدول الأوروبية على المطبوعات اليهودية ، فإن التعبيرات التلمودية، مثل «غيري» و «لا يهودي» و «غريب» التي تظهر في المخطوطات والطبعات الأولى من كتب تراثهم استبدلت بمصطلحات «وثني» و«همجي» و«كنعاني» و «سامري»

و «عـربي» و «مسلـم» «يشمـاعيلـي» و «مصـري» .. الخ ، لكن القـارئ اليهـودي يعرف أنهـا مصطلحات ملطفة للتـعبيرات الـقديمة تعني حتى المسيـحي والنصراني وكل من هو غير يهـودي عموماً . وفي نفس الوقت جرى توزيع قـوائم بالمحذوفات التلمودية ، على هيـئة مخطوطات ، تشرح التعـبيرات الجديدة وتشيـر إلى المحذوفة. وقد استخدم بعض الحاخامات، بعد الاحتلال الإنجليزي للهند، حيلة تفيد أن أي إشارة تثير الغضب أو تحط من الكرامـة يستخدمونها، يقصد بهـا الهند فقط، وفي مناسبات أخرى تمت الإشـارة إلى السكان الأصليين في أستراليـا باعتبارهم المقـصودين بتلك التعبيرات، أما في إسرائيل فلقد نشرت تـلك المحذوفات التلمودية في طبعة رخيصة بعنوان « هيرسونوت شاس» ليقرأها الجمهور ويتم تعليمها للأطفال اليهود»[٩٩] .

وإذا كان اجتـماع اليهود عـلى هذا الكذب والنفاق هو من كبائر العـجائب ، فإن الغريب والعـجيب أن يتبلور تيار عريض في الثـقافة الغربية ــ من غيـر اليهود ــ يبرر لليهـود هذا الكذب وهذا النفاق، حتى ليجـعله «مذهباً » يدعون إليه، ومـوقفاً يدافعون عنه. وعن هذا التيار الغربي، الذي يبرر هذا الكذب والنفاق، يقول إسرائيل شاحاك: « ويعتنق كثير من غير اليهود (بما في ذلك رجال الدين المسيحيون وبعض العوام المتـدينين وكذلك بعض الماركـسيين في جمـيع المنظمات الماركسـية) الرأي الغريب القائل : إن أحد أشكال « التكفير » عـما أصاب اليهود من اضطهاد ، يعني عدم الحـديث عن الشر الذي يمارسـه اليهود أنفـسهم ، بل المشـاركة في « الكذب الأبيض » حول اليـهود ، كما أن الاتهام الفج بـالعداء للسامية المـوجه لأي شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين ، أو يظهر أي حقيقة حول الديانة اليهودية ، أو الماضي اليهـودي، تتناقض مع « الصورة المتفق عـليها» يأتي محـملاً بقدر أكـبر من العداء من جانب «أصدقاء اليهود» أكثر مما يأتي من جانب اليهود أنفسهم»[١٠٠] .

وأمام هذه العنصرية المتوحشة، التي صبغت فكر اليهود وممارستهم عبر تاريخهم الطويل يتـسائل المرء عن « المرجـعية » و «الثـابت الفكري» الذي حافظ عـلى بقاء

هذه العنصرية ضد الأغيار على مر التاريخ؟ وفي الإجابة على هذا التساؤل ، نجد كل الأصابع تشير إلى الصورة العنصرية التي تحولت إليها اليهودية كدين نشأت من عدة وجوه أولاً الشعور بالاستعلاء وأنهم شعب الله المختار، ثانياً أسفار التوراة قد أعيدت كتابتها في مرحلة السبي البابلي فأصابها قدر كبير من روح الحقد على الأغيار، والتعصب الأعمى ضد جميع هؤلاء الأغيار، ثالثاً الشروح والتعليقات والحوارات التي في التلمود البابلي، والذي غدا أكثر محورية في الفكر والحياة اليهودية من التوراة والتي اصطبغت بالعنصرية التي كانت طابع تلك المرحلة في حياة وتاريخ اليهود، رابعاً وإذا كانت ضخامة مجلدات التلمود وأساليب تدوينه قد جعلت استيعابه مستحيلاً في الحياة اليهودية ذاتها، وجعلت الرجوع إليه نادراً، فإن تلخيصات التلمود وتفسيراته وفي مقدمتها « مشناة توراة» أي متن التوراة الذي كتبه موسى بن ميمون والذي حل علمياً محل التلمود قد استصفى ما في التلمود من عنصرية وعداء متوحش ضد الأغيار كما زعموا ، فأصبح هذا الكتاب هو « ديوان العنصرية اليهودية » ، كما أصبح موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود بإطلاق ، حتى لقد شاع عندهم في وصف مكانته قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى»[١٠١].

لقد تحولت اليهودية عن طابعها الحقيقي ، وانقلبت على روح دين التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام الذي هو دين الأنبياء والرسل، فغدت « ديانة وثنية» خاصة بالعنصر اليهودي ، وأصبح إلها «يهوه» إلهاً لليهود وحدهم ، وللشعوب الأخرى آلهتها الخاصة بها، كما نسخت اليهودية التلمودية اليهودية التوراتية وحلت محلها ، ثم انتهت هذه الديانة المخترعة إلى أن أصبحت « ديانة بيولوجية ـ عنصرية » ، فاليهودي في عرفها وتعريفها هو المولود من أم يهودية ، يصبح بسبب هذه الولادة يهودياً ومن شعب الله المختار ، حتى ولو كان ملحداً ، أو حتى ابن زنى. ووفق هذا المعيار البيولوجي لا يعد نبي الله سليمان عليه السلام

يهودياً ، فأمه كانت حثيثة وكذلك أبوه داود عليه السلام، فأم جدته كانت مؤابية، بينما يصبح الصهاينة الملاحدة من شعب الله المختار ، وعن هذه الحقائق ، التي تكشف الوجه الحقيقي لليهودية التي صبغت هؤلاء اليهود بالعنصرية المتوحشة ، يقول إسرائيل شاحاك : « هناك في كثير ـ إن لم نقل في كل ـ أسفار العهد القديم حضور وسلطة لأرباب آخرين معترف بهم صراحة ، لكن « يهيوه» أقوى الأرباب ، غيور جداً من منافسيه ، ويحظر على شعبه عبادتهم ، ولا يظهر إلا في نهاية التوراة فقط ، لدى بعض الأنبياء المتأخرين إنكار لوجود جميع الأرباب ما عدا يهوه . واليهودية الكلاسيكية خلال بعض مئات من سنواتها الأخيرة ، كانت بمعظمها بعيدة تماماً عن التوحيد الخالص ، وهذا ينطبق أيضاً على الحقائق المهيمنة في الأرثوذكسية اليهودية في الوقت الراهن، وهي استمرار مباشر لليهودية الكلاسيكية، لقد جاء انحطاط التوحيد من خلال انتشار الصوفية اليهودية (القبالاه) ، لا يحكم من جانب إله واحد، بل من جانب أرباب عدة ، ذوي شخصيات وتأثيرات مختلفة ، تنبثق من علة أولى بعيدة مبهمة»[١٠٢] .

وإذا كانت الوثنية قد أصابت « اليهودية التوراتية» ، فإن « اليهودية التلمودية» قد أوغلت في الانحرافات أكثر وأكثر ، وهناك فكرة مضللة ، مؤداها أن اليهودية «ديانة توراتية» وأن العهد القديم له في اليهودية نفس المكانة المركزية والسلطة الشرعية التي يحظى بها الإنجيل في المسيحية ، لكن فيما يتعلق بالتلمود وليس التوراة ، فإن الكثير من الآيات التوراتية التي تأمر بالأعمال الدينية والالتزامات «مفهومة» من جانب اليهود اليهودية الكلاسيكسة والأرثوذكسية في يومنا هذا بطريقة تختلف عن ـ وحتى تتناقض مع ـ معناها الحرفي كما يفهمها قراء العهد القديم ، الذين لا يرون إلا النص العادي بصورته الظاهرة فقط، فالوصية الثانية ـ من الوصايا العشر ـ في التوراة : لا تسرق»[١٠٣]، تؤخذ كتحريم للسرقة، أي اختطاف شخص يهودي، بينما تبيح الشريعة التلمودية اختطاف اليهود

للأغيار[١٠٤]، وفي عدد لا يحصى من الحالات يتم تفسير تعبيرات مثل «جاك» و«الغريب» أو حتى « الإنسان» بالمعنى الشوفيني الحصري ، أي تعني اليهود فقط ، ولذا فإن العبارة الشهيرة : « بل تحب قريبك كنفسك»[١٠٥]، تفسر في اليهودية الكلاسيكية (واليهودية الأرثوذكسية حالياً) كأمر بل يحب اليهودي قريبه اليهودي[١٠٦]. وليس أي جار آخر ، وإن عبارة « لا تهمل دم جارك» تحولت إلى منع اليهود عموماً من إنقاذ حياة غير اليهودي، لأنه « ليس قريبك» ، وإن الوصية التي تحض على ترك فضلات الحقل والكرم « للفقير والغريب»[١٠٧] ، تفسر كإشارة إلى الفقير اليهودي ومعتنقي الديانة اليهودية فقط.

وهكذا ، فاليهود الأرثوذكس الآن عندما يقرأون التوراة ، فإنهم يقرأون في الواقع كتاباً مختلفاً ، بمعان تختلف تماماً عن التوراة التي يقرأها غير اليهود . لذا فإن مصدر التشريع لكل ممارسات اليهودية الكلاسيكية (والأرثوذكسية حالياً) والأساس المقرر لبنيتها التشريعية هو التلمود ، وإذا توخينا الدقة عما يدعى بالتلمود البابلي ، لأن بقية الأدب التلمودي (بما فيها ما يدعى التلمود المقدسي أو الفلسطيني) مجرد تشريعات تكميلية . تلك هي اليهودية التي نواجهها ، والتي أفرزت هذه العنصرية المتوحشة ضد كل ما ليس بيهودي ، وهي يهودية لا علاقة لها بيهودية موسى عليه السلام ، كما أن هؤلاء اليهود لا علاقة لهم ببني إسرائيل ، الذين عندما تدينوا بيهودية موسى كانوا الجماعة الموحدة ، التي فضلها الله سبحانه وتعالى على العالمين . إننا أمام «يهودية بيولوجية ـ عنصرية » لا علاقة لها بالإيمان الديني ، ويكون الإنسان يهودياً يعتمد ـ في هذه اليهودية ـ على الانحدار من سلالة الأم ، وليس على الإيمان الفعلي للشخص الذي ينتسب إلى هذا الدين الذي لا علاقة له بالدين أي دين .

ولا يحسبن أحد أن حال «اليهودية ـ التوراتية » في موقفها من الآخر أفضل ولو حتى قليلاً، من حال «اليهودية ــ التلمودية» ، فالتلمود هو الشروح التي وضعها

الأحبار والحاخامات في مرحلة السبي وأحقاده على التوراة بعد تحريفها ، وتحويلها من التوحيد إلى الوثنية ومن الإنسانية إلى العنصرية . أوضحنا ذلك حتى لا يزعم أن الفاعل في الحياة اليهودية ـ الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة هي « التوراة وليس التلمود» وتلخيصاته، وأن إغفال موقف « التوراة » من الآخر، فيه تعمية على حقيقة موقف اليهود المعاصر ـ ومن ثم اليهود المعاصرين ـ من الأغيار .

وإذا كان هذا هو حال الثقافة اللاهوتية اليهودية إزاء الآخر وما فيها من تمييز ديني واضح فلعله من المناسب أن نضيف المزيد عن التمييز الديني المسيحي المتضامن مع التمييز الديني اليهودي لتعاضدها في هدف واحد هو محاربة الإسلام كما نراه في توجهات اليهود الغربيين ، فهم من جهة يهود ومن جهة أخرى مواطنون علمانيون في دول الغرب. إن حال «الثقافة العلمانية اللاهوتية المسيحية» الغربية إزاء الآخر وعلى الأخص الآخر الإسلامي لم تكن أكثر إنصافاً ، ولا أقل في درجات الإنكار والتشويه ومحاولات الاستئصال، لقد اتخذت هذه الثقافة الغربية ـ في جملتها ـ ذات الموقف الاستئصالي، عبر تاريخها الوسيط، والحديث، والمعاصر، وحتى كتابة هذه السطور، فسار «الغرب الحضاري» على درب «الغرب اللاهوتي» في ثقافة النفي والإنكار والاستئصال، في نزعة المركزية الحضارية الغربية» ـ التي صورت للغرب أنه بداية الحضارة ـ التي بدأت بالإغريق والرومان ـ وأنه نهايتها ، ونهاية التاريخ. هذه «النزعة المركزية» قد جعلت الثقافة الغربية تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة ومستقلة في ثقافتها، فزعمت هذه المركزية أن الحضارة الغربية هي الحضارة العالمية، وأن العلم والتحضر قد بدأ بالإغريق ، وانتهى بالنهضة العالمية ، وأن إسهامات الآخرين ـ وخاصة بالمسلمين ـ لا تعدو أن تكون « إسهامات » ساعي البريد، الذي نقل تراث الإغريق إلى أوروبا عصر النهضة والتنوير[١٠٨] .

وبسبب هذه النزعة المركزية الغربية، كان الاستعمار الغربي وهو يبيد البنى

الحضارية والثقافات للشعوب والأمم التي ابتليت بهذا الاستعمار يتقمص دور صاحب «الريادة الحضارية والإنجاز التقدمي» ، فهو الأقوى، والأقوى هو الأصلح والأجدر بالبقاء وفق قاعدة وفلسفة القانون الصراعي الذي طبقه « داروين» في عالم الأحياء ، فالطبيعي وفق هذه النزعة المركزية أن يصرع القوي الضعيف، وتزيل الحضارة القوية الغازية البنى الموروثة للحضارات المغزوة ـ تراث الآخرين ـ وتصب العالم ـ بالغريب، وأخيراً بالعولمة في قالب حضاري وثقافي وقيمي وحيد ، مما سنتحدث عنه في فصل من فصول هذا الباب المتعلق بنواقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

لقد ضمن ميراث الغرب نوم الضمير أو موته وهو يمارس هذا العدوان على «الآخر الحضاري» ، وبالذات « الآخر الإسلامي »، ذلك الميراث المشوه والعدائي الذي حفلت به ثقافة المدنية تاريخياً، على اختلاف حقولها وميادينها إزاء الإسلام ومقدساته وأمته وحضارته، وهو الميراث الذي لا يزال فاعلاً في الإعلام الغربي، والتعليم الغربي، ودوائر الفكر والدراسات، وعند صناع القرار[١٠٩]. ففي الثقافة الشعبية الغربية تتعلم الجماهير من «ملحمة رولاند» أن المسلمين يعبدون الثالوث: ١ ـ أبوللين Apollin ٢ـ وترفاجانت Tervagant ٣ـ ومحمد Mahamed ، وأن المسلمين يعظمون يوم الجمعة ، لأنه يوم إلهه الحب « فينوس» Venus ، بينما المسيحيون يعظمون يوم الأحد لأنه يوم الرب، هنا يأتي الفرق بين مفهوم التنوع والتعدد والخصوصية في الأجناس والألسن والأديان .. الخ في الدين الإسلامي وغيره من الأديان ، وهذا ما أكده النبي محمد ﷺ عن الاختلاف مثلاً حتى في عطلة الأسبوع الذي هو يوم الجمعة عند المسلمين يقول عليه الصلاة والسلام: **« أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق »**[١١٠].

ولقد لعبت هذه الصورة التي شاعت في الثقافة الغربية دورها في تجيش أحقاد العامة والدهماء في الحملات الصليبية ضد الإسلام وأمته وعالمه وحضارته فتكلم هذه الملحمة ـ «ملحمة رولاند» ـ عن المسلمين وفيها: «انظروا إلى هذا الشعب الملعون، إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله، وسوف يمحى اسمه من فوق الأرض الزاخرة بالحياة، لأنه يعبد الأصنام، لا يمكن أن يكون له خلاص، لقد حُكم عليه، فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم باسم الله»، ثم تبدأ ملاحم القتال الصليبي، بعد تلاوة هذا الذي جاء في «ملحمة رولاند»[١١١].

والشاعر الإيطالي دانتي والذي مثّل مرجعية كبرى في الثقافة الغربية يضع رسول الإسلام ﷺ، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات جهنم، إذ بنظره التنويري هم من أهل الشجار والنفاق، الذين تقطعت أجسادهم في سعير «الكوميديا الإلهية»[١١٢]، أما جوته الألماني فإن رسول الإسلام عنده قد نصب حول العرب غلافاً دينياً كئيباً، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل في أي تقدم حقيقي[١١٣].

ولهذا التشويه الذي سعت إليه الثقافة المدنية الغربية أسبابه في تشويه الآخر الإسلامي والدعوة إلى إنكاره واستئصاله مما عبَّر عنه المستشرق البريطاني واط بأن التشويه إنما هو تعويض للنقص الذي يشعر به الغرب، ولتزامن هذا الموقف الثقافي المدني مع الموقف الثقافي اللاهوتي في الحضارة الغربية رأينا امتدادات هذا الموقف تسود في الرؤية الغربية المعاصرة للإسلام وأمته وعالمه وحضارته، وتصبح لها تأثيراتها على صانع القرار في المشروع الغربي، المتحالف مع المشروع الصهيوني ضد نهضة الشرق الإسلامي، وحق تقرير المصير للشعوب المسلمة، وإسلامية النموذج الحضاري في عالم الإسلام، فالرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون وهو من رجالات الاستراتيجية السياسية، يتحدث عن صورة الإسلام والمسلمين في العقل الأمريكي المعاصر فيقول: «**إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل**

المسلمين كأعداء، ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون وغير منطقيين ، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون ـ بالصدفة ـ على بعض الأماكن التي تحوي ثلثي النفط الموجود في العالم ، وليس هناك أسوأ من هذه الصورة ـ حتى بالنسبة إلى الصين الشيوعية ـ في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي»[١١٤]، ويحذر نيكسون بعض المراقبين من أن الإسلام فيقول: « سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة ، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة ، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي»[١١٥]، ثم يضيف نيكسون إلى كل الذي قاله فكرة التضاد بين الإسلام والمسيحية على خلاف المفاهيم الإسلامية التي تنادي بالتعارف بقوله: « أن الإسلام والغرب متضادان، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين: «دار الإسلام» و «دار الحرب» حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب أن يتحد مع الإتحاد السوفييتي ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة»[١١٦].

وإذا كان نيكسون قد شهد بأن الإسلام والمسلمين هم أسوأ الصور في ثقافة أغلبية الأمريكيين، الأمر الذي جعلهم يدعون إلى تحالف الأعداء الليبرالية الرأسمالية والشمولية الشيوعية ضد الآخر الإسلامي، فإن سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها ومعسكراتها قد زاد من حدة العداء الغربي لهذا الآخر الإسلامي، فلقد سألت مجلة (النيوز ويك) الأمريكية رئيس المجلس الوزاري الأوروبي السياسي الإيطالي الايرز جياني ديميكليس : « ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي ـ الناتو ـ بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكياً؟، فأجاب رئيس المجلس الوزاري الأوروبي بقوله: « صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة ، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، ثم

سُئل: وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة؟ لم يتردد جياني ديميكليس في أن يعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الحضاري الغربي، وقبول المسلمين له أي إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي، فقال: ينبغي أن تحل أوروبا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة» (١١٧)، فالمطلب الغربي بمثل هذه الأفكار وهذه التوجيهات يعني «إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي» سلماً ـ بقبول المسلمين للنموذج الحضاري الغربي ـ أو حرباً ـ بواسطة آلة الحرب الأطلنطية إذا هم لم يتنازلوا عن نموذجهم الحضاري الخاص .

أما مجلة (شؤون دولية) **International Affairs** التي يصدرها المعهد الملكي للشؤون الدولية بجامعة كمبردج البريطانية فإنها تقدم التفسير الثقافي والحضاري لإعلان كثير من مؤسسات المشروع الغربي أن الإسلام هو العدو، الذي حل محل « إمبراطورية الشر الشيوعية»، فإذا بجوهر أسباب هذا الإعلان لهذا العداء هو رفض الإسلام وعالمه والتخلي عن النموذج الثقافي والحضاري المتميز، واستعصاء الإسلام على الذوبان في النموذج العلماني الغربي، فلهذا السبب أصبح الإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، حتى لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي، وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول، لهذا فإن غربيين كثيرين (يهود ونصارى) يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي الغربي الذي يميز بما لله وما لقيصر لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها في ديمقراطية علمانية؟ لأن لكل ذي حق حقه، وإذا كان المطلب هو قبول النموذج الغربي وإنكار الآخر

الإسلامي حقوقه عندها ستهوى كل نظريات حقوق الإنسان والديمقراطية والتعددية الحزبية والفكرية وحرية الدين والخصومات والتنوع الحضاري، ومزيد من ذلك سيجده القارئ عند قراءة الفصل المتعلق بالعولمة ومناقضتها لحقوق الإنسان وأسس الديمقراطية والحريات التي تباكى المتباكون عليها منذ قيام الثورات المختلفة في الغرب في القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا.

إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع في الغرب تقول :« إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني» صالحة على العموم ، لأنها تناقض التأثير السياسي والسلوكي للدين عملياً في كل المجتمعات، وبدرجة متفاوتة، وأشكال مختلفة، لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا، فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت عليه قبل مائة سنة مضت، إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعاً ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً في ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية، فهو صحيح في ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعياً ، وهو صحيح في ظل النظم التقليدية، وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين[١١٨]. إن وجود تقاليد محلية للإسلام، قد مكن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرقت مجتمعات أخرى غير متطورة، أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال، معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته، لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي، باسم الإيمان المحلي ، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة. إن الإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاإرادية وفتور الهمة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً، فضلاً عن هلاكها المعنوي[١١٩].

فامتلاك الإسلام مقومات التجدد الذاتي، ومعالم المشروع النهضوي المؤمن، هو الذي جعله مستعصياً على العلمنة، واستثناء ـ من بين ثقافات الجنوب ـ في رفض التغريب والذوبان في النموذج العلماني الغربي ، الذي ربط الديمقراطية بالعلمنة التي تفصل بين ما لله لله وما لقيصر لقيصر فضلاً بين الدين والدنيا ، ولذلك كان إعلان الغرب: «أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية» والتهديد بتوجيه آلة الحرب الأطلنطية إلى العالم الإسلامي، الرافض للنزعة المركزية الحضارية الغربية، التي لا تريد في العالم سوى نموذجها الحضاري. وبعبارة جياني ديميكليس: «أن يصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة» ، فإما تغريب العالم ، وإلغاء «الآخر الحضاري» ، وإما المواجهة ، على اختلاف آلياتها وميادينها. ولهذه الحقائق التي أعلنتها وتعلنها « النصوص الغربية» ومن قبلها جسدتها وتجسدها «الممارسات الغربية» الرافضة للآخر «الديني» و «الحضاري» يمكن قراءة ما كتبه صامويل ب. هانتنجتون عن صدام الحضارات ، وهانتنجتون كمفكر استراتيجي يهودي الديانة أمريكي الجنسية قريب من دوائر صنع القرار ، لم يكن داعياً ومبشراً بصدام الحضارات، وإنما كان كاشفاً عن موقف الغرب الذي يمارس تاريخياً وحالياً صدام الحضارات.

وإذا كنا في التاريخ الحي الواقع الذي تعرض فيه العالم الإسلامي لاستعمار الغرب غزواً عسكرياً وقهراً حضارياً ، ونهباً اقتصادياً ، وتغريباً ثقافياً لأكثر من أربعة عشر قرناً ، عشرة منها بدأت بالإسكندر الأكبر واستمرت حتى التحرير الإسلامي الذي أزال بالفتوحات الإسلامية امتدادات غزو الإسكندر الأكبر، وقرنان من هذا الغزو الغربي عشناهما في ظل حروب الفرنجة الحملات الصليبية ودولها وكياناتها الاستيطانية والاستعمارية (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م)، وأكثر من قرنين ما زلنا نعالج آثار الغزوة الغربية فيهما منذ حملة نابليون بونابرت

(١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر وغيرها من دول إسلامية استعمرت ظلماً وعدواناً، بل إن عمر هذه الموجات الإستعمارية الغربية ضد الشرق يمكن أن يبلغ ستة عشر قرناً ـ لأربعة عشر ـ إذا نحن أضفنا مرحلة الإلتفاف حول العالم الإسلامي، واستعمار شرقي آسيا والتي بدأت عقب سقوط غرناطة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م) وحتى غزو بونابرت لقلب العالم العربي .

إذا كانت هذه هي الممارسة الغربية ضد الآخر الإسلامي فإن هانتنجتون ليس بمخترع لهذا الذي مارسه الغرب عبر هذا التاريخ الطويل وإنما كان في الحقيقة كاشفاً عن هذه النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام وعالمه ، وهذا هو معنى عبارته: « إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام »، ولأن هانتنجتون ملتزم بمصالح الغرب وابن لليهودية التي تمثل مع التراث المسيحي البعد الروحي للحضارة الغربية، فلقد حاول تمييع الموقف عندما جعل هذا الصراع موقفاً مشتكاً، وفعلاً متبادلاً بيننا وبين الغرب، على حين كنا نحن الضحايا لهذه النزعة المركزية الحضارية الغربية ، ولهذه الفلسفة الصراعية التي مثلت ولا تزال جزءاً من البنية العضوية والروح السارية في الحضارة الغربية ، وهانتنجتون بهذا الموقف ، لا يزيِّف الحقيقة فقط ، وإنما يتجاهل موقف الإسلام وأمته وحضارته إزاء الآخر ، بل ويتجاهل رفض الإسلام للفلسفة الصراعية ، وتبنيه بدلاً منها لفلسفة التدافع الذي هو حراك سياسي وديني وفكري واجتماعي، يصحح مواقف الظلم والجور دون أن يذهب بالصراع إلى صراع الآخر وإلغائه، وأيضاً دون أن يتبنى موقف السكون والسلبية ، الذي يدع العالم ومجتمعاته غابة يفترس الأقوياء فيها الضعفاء، فالإسلام رافض لمذهب الصراع وفلسفته ، ومنحاز إلى التدافع الحضاري وفلسفته، قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١٢٠]، يقول الإمام ابن كثير: لولاه ـ أي الله جل شأنه ـ يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت

وشجاعة داود لهلكوا ، ولهذا قال الرسول ﷺ: **« إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل مادام فيهم»**[١٢١] ، وقوله عليه السلام: **«لا يزال فيكم سبعة، بهم تنصرون ، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله»**[١٢٢] .

فالتعددية والتمايز والاختلاف والتنوع في نظر الإسلام سنة من سنن الله الكونية والتكوينية، في مختلف ميادين الوجود والحياة، فالأحدية فقط هي للذات الإلهية، وما عدا ومن عدا الذات الإلهية قائم على سنة وفلسفة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، وإذا كان الصراع هو مقبرة التعددية فهذا ما قاله الله تعالى عن حال المستكبرين: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾[١٢٣]، هكذا تكون نهاية المستكبرين المصارعين للحق والذين لا يذعنون له، ينتهون فلا يبقى منهم أو من ينتسب إليهم أحد، ولا قدرة ولا قوة للخلق مع قدرة الخالق، قال النبي محمد ﷺ: **« ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح وما فيها ، قالوا: هذا عارض ممطرنا ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»**[١٢٤] .

إن مفاهيم الإسلام مع التدافع أصلح للإنسانية وحياتها والسبيل الحقيقي لحفظ حقوق الإنسان، ولا يمكن أن تكون هذه المفاهيم الإسلامية مع الصراع حتى لا تنتهك حقوق الإنسان وتهدر كرامته وحريته، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[١٢٥]، ومع هذا فإن هانتنجتون كمستشار مؤتمن لصانع القرار الغربي قد أشار على قومه بترتيب الأولويات في معارك صراع الغرب مع الآخرين ، فدعاهم إلى البدء بكسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية ـ الصينية ـ مع تحييد الحضارات التي حيدها، والتي أبت تبني

النموذج الغربي والذوبان في التغريب كما في شبه القارة الهندية وفي بعض دول قارة أفريقيا وغيرها من بقاع الأرض، وصدق الله العظيم القائل : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[١٢٦].

وبمؤازرة علنية وبينه من بعض دول الغرب المسيحي نتابع مظاهر التمييز الديني عند اليهود منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن ومنه اعتقادهم بأنهم ينتمون إلى قومية منفصلة ويحلمون بتكوين وطن قومي لهم في فلسطين وهذا منتهى التمييز الديني والعنصري وكافة أشكال التمييز من البعد السياسي المنطوي على الفكر الديني العنصري .

إنه لا يمكننا بحال اعتبار اليهود شعباً أو أمة أو عنصراً أو جنساً بل يعتبرون مواطنين في البلاد التي يعيشون فيها (فهم أقلية تعدادها لا يزيد عن خمسة عشر مليون) نسمة متفرقة في كثير من دول العالم وإن صعب على بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية معرفة عدد اليهود بأمريكا وتحديد أماكن ولاداتهم والبلدان التي هاجروا منها، إلا أنه عندما غدا تيار الغزو اليهودي للولايات المتحدة في حقبة الثمانين من الضخامة بحيث بات من المتعذر على أي إنسان تجاهله أو تجاهل مخاطره، طلبت سلطات الإحصاء من الكونغرس السماح لها بتصنيف الناس حسب أجناسهم وحسب أماكن ولادتهم، وقاد اليهود أعنف المعارضة في الكونغرس ، وقد كشفت معارضة اليهود لهذه الخطوة عن أربع قضايا بوضوح وجلاء «فاليهودي يعارض في أي تشريع يقيد دخوله إلى البلاد، إن اليهودي يدعي أمام الآخرين بأنه يمثل ديناً لا عنصراً ، إن لليهودي رأيين أحدهما يواجه به غير اليهود والثاني يحتفظ به لنفسه ويجهر به أمام إخوانه من اليهود وذلك بالنسبة إلى هذه القضية العنصرية»[١٢٧]، لهذا كله فاليهود في نظرنا ليسوا إلا مجموعة لها دين وليسوا أمة أو شعباً أو عنصراً ، وإلى هذا يشير ألفريد ليلنثال بقوله: «وهكذا فإن الرابطة التي تجمع بين اليهود المقيمين في إسرائيل وبين يهود العالم، تقتصر على

الناحية الدينية فقط لا على الجنسية الإسرائيلية الجديدة التي قامت مؤخراً نتيجة قيام الدولة الجديدة ، ومع أن الشعب اليهودي، أصبح لا وجود له منذ عام ٧٢ ميلادية ، إلا أن الشعور الوطني ظل حياً في نفوس اليهود على مر الأجيال يدفعهم للعمل على جمع شعب هذه الأمة المتفرقة وإعادة إنشاء دولة يهودية»[١٢٨]، كل ذلك بمقتضى الفكر العنصري والتمييز الديني ، وعندما أحس اليهود بالخطر المحدق بهم من الأمم الأخرى نتيجة ما تعرضوا له من الطرد والامتهان أعادوا النظر في سياستهم وسلوكهم فعملوا على تحسين علاقاتهم مع الأمم النصرانية بقصد مناوأة الإسلام وإثارة الحقد الدفين لدى الصليبيين في أوروبا وأمريكا على أساس التمييز الديني ضد المسلمين ، وبالتالي تحويل النظر عنهم وتوجيهه إلى الإسلام ليتمكن اليهود من العمل في الخفاء للقضاء على البشرية جمعاء، فخضع اليهود للحكم في كثير من الدول في تلك الدول شيئاً فشيئاً بتمسكن وخضوع، ولكنهم كانوا يرسمون ويخططون قواعد النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والتعليمية في تلك الدول، فاستمرأت شعوب وحكومات تلك الدول نظريات ماركس وكونت وفرويد وشاتوبريان وغيرهم ، وظهرت الثورة الصناعية والثورة الفرنسية والثورة البلشفية والنظريات العلمانية والإلحادية المادية فأَسْعَرَتْ نيران الحربين الكبريين ....الخ . وكان وقودها التمييز بأشكاله المختلفة.

والمتتبع لأحداث التاريخ عن اليهود وحياتهم في أوروبا التي تغفل اليوم عنهم يجد أنه في عام ١٢٩٠م طرد الملك إدوارد اليهود من إنجلترا ، كما أنه بعد حوالي ستة عشر عاماً قام الملك فيليب بطرد اليهود من فرنسا ولم يعودوا إليها إلا عام ١٣٩٤م وبعدد قليل جداً، كما أن اليهود طردوا من المجر سنة ١٣٦٠م، وفي بلجيكا طرد اليهود عام ١٣٧٠م، كما شرد اليهود من تشيكوسلوفاكيا عام ١٣٨٠م من مدينة براغ ثم عادوا واستوطنوها عام١٥٦٢م، ولكن الإمبراطورة ماريا تيريزا عادت فطردتهم عام ١٧٤٤م، وطرد اليهود أيضاً من النمسا

عـام١٤٢٠م، ومن هولندا عـام ١٤٤٤م ومن إيطاليا من مملكة نابولي وسردينيا عام١٥٤٠م ، أمـا في ألمانيا فقد نفـوا من بافاريا عام ١٥٥١م ، وكـذا اضطهادهم على يد النازين خلال الحرب العالمية الثانية، وطردوا من روسيا عام ١٥١٠م[١٢٩]، وعندما أحس اليهود بخطر التشريد والطرد لجأوا إلى سياسة المهادنة والتمسكن لضمـان الأمن والسلامـة، ولذا فقد نجح اليـهود في سياسة الإندمـاج والمهادنة مع الدول التي عاشـوا فيهـا في الغرب نجاحـاً كبيـراً مع ما يحمله التـاريخ من أحداث توضح مدى انخداع شعوب وحكومات تلك الدول باليهود، فاليهودية كما ذكرنا سابقاً تكره المسيحية وخصوصاً المذهب الكاثوليكي، فاليهود يظنون أن دينهم دين التوحـيد، والكاثوليك يؤمنـون بتعدد الآلهـة، ولقد نجح اليـهود في احتواء المذهب البروتستـانتي لأنه يؤمن بالتوحيد المزعوم عند اليـهود وإقناع أئمة البروتستـانتية بأن التوراة هي النبع الوحـيد للمسيـحية الأمر الذي أثر كـثيراً في كثيـر من الدول سلباً وإيجاباً: «وليس من العـسير إدراك مـا يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا اليـقين إذ أصبح عامـاً في خلق جو مـن التحيـز اللاشعـوري ممن يدينون بالبـروتستانتـينية عـلى وجه الخصوص للصهيونية العنصرية المستترة وراء اليهودية، وهو جو نعرف جميعاً كيف تتضاءل فيه جرائم الصهيونية وآثامهـا في تحيزه لها، كما يعمي عن فضائل مناوئيها وحقوقـهم في تحيزه ضـدهم، فهل نسيت أمريكا الحـملات التي شنها اليـهود ضد المسـيحيين فـي محاربـة كلمة مـسيحي من لائحة حـقوق الإنسـان ومسألـة عدم التركيز على تدريس الإنجيل في المدارس، وعدم الاهتمام بعيد الميلاد وعدم تدريس رواية (تاجر البندقية)، إضـافة إلى مسائل احتكار اليهود لتـنظيم الدستور في أمريكا وغيـر ذلك»[١٣٠]، لقـد كان هذا هو حـال اليهود عـلى مر العـصور والأزمان فـهم يتحالفون مع القوى الباغية لتنفيذ رغـباتهم ، فلقد تحالف اليهود مع القوى الحاكمة ضد عيسى بن مريم، إذاً ليس غريباً أن يتحالف اليهود اليوم مع دول الاستعمار ضد المسلمين ، وقد وصف القـرآن الكريم هذا الطبع عند اليهود في قـوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ

كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾[١٣١].

ومع أن اليهود لم ينعموا بحياة هادئة وسلام تام في ظل أمة من الأمم كما نعموا في ظل الأمة الإسلامية إلا أن طباعهم الشرسة الإجرامية تدفع بهم للعبث إلى من أحسن إليهم أو لم يحسن، فعندما ظهر الإسلام وهاجر النبي محمد ﷺ إلى المدينة المنورة التقى عليه أفضل الصلاة والسلام باليهود ودعاهم إلى الإسلام ، ولما امتنعوا لم يكرههم عليه ، بل آمنهم على أموالهم وأنفسهم وتعاهد معهم في صحائف كتب لهم فيها العهد والوفاء ما داموا موفين بالعهد ، وجعل لليهود نصيباً من الغنائم إذا قاتلوا مع المسلمين ، وهذا يبين حسن المعاملة التي عاشها اليهود في ظل الدولة الإسلامية، كما اعترف الرسول ﷺ بجواز طعامهم والزواج من نسائهم، كل ذلك لأن النبي ﷺ يعرف أن موسى عليه السلام ومن قبله من الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله إلى بني إسرائيل هم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام ، ولكن الكبر اليهودي يأبى إلا الباطل والفساد والتمييز الديني والعنصري بشتى وسائل الإجرام والبغي والطغيان .

إن صلة اليهود بالجريمة والفساد في هذه الحياة الدنيا صلة وشيجة أظهرتها الكتب المقدسة، التوراة ، الإنجيل، والقرآن الكريم، وذكرتها أحداث التاريخ، وكتب الأحداث والسير والأخبار، عصوا موسى، وخالفوا أمر ربهم، حاولوا قتل عيسى وصلبه، وعملوا على تشكيك الناس في نبوءة محمد ﷺ، بل حاولوا قتله بأن دسوا له السم في الطعام، فإذا قد وقر في قلوب اليهود عدم المهابة من الله سبحانه وتعالى وعدم طاعة رسله عليهم السلام ، فقد سهل عليهم ألا يهابوا من هو دونهم ، فمات الإحساس في قلوب اليهود بمعرفة الحق والصواب، وجريمة اليهود مع النصارى يمكن أن ترى في محاولتهم قتل نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، لقد تآمر اليهود على هذا النبي كلمة الله وروحه، لأنه صرح

بالنبوة مسفهاً أحلام اليهود ، وفاضحاً لخططهم وأساليبهم الملتوية، فقرر اليهود إعدام النبي الجديد عيسى ابن مريم، فأشاروا على الحاكم الروماني بيلاطس النبطي أن ينفذ حكم الإعدام صلباً بهذا الذي يدعي النبوة ، ويحرض عليك الشعب، واتهموا عيسى بأنه لا يعترف باليهود وتعاليمهم ، ومنذ ذلك الحين والجرائم اليهودية تلاحق النصارى أتباع المسيح ابن مريم عليه السلام[١٣٢].

وقد بين الكتاب العزيز حقيقة اليهود ومسألة قتلهم الأنبياء والرسل وأهل الحق من عامة الناس، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١٣٣]، ولعل مما يمكن ذكره عن قتل الناس في المدن تلك الأحداث التي مارس فيها اليهود القتل للأبرياء بكل ضراوة وعنف وجبروت وقسوة، أعني مذابح اليهود في فلسطين لأبناء الأمة الإسلامية في العصر الحديث ابتداءً من وعد بلفور وما تلا ذلك من قرارات، ومنها قرار اللجنة التنفيذية العامة لمؤتمر حزب العمال البريطاني في عام ١٩٤٤م ، الذي أكد على تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، وإخراج سكانها العرب ، فهذا كله هيأ الأسباب لليهود، فدفعت بهم طباعهم القاتلة إلى ارتكاب أفظع جرائم القتل ، منها مذبحة دير ياسين في عام ١٩٤٨م ، التي راح ضحيتها مائتان وخمسين إنساناً ، بقرت بطون خمس وعشرين امرأة حاملاً ، واثنان وخمسين طفلاً قطعت أوصالهم أمام أمهاتهم ، ومثلوا بستين امرأة وفتاة ، وفي عام١٩٥٣م ، كانت مذبحة قرية قبية ، وقد دمر فيها أربعون منزلاً ، وقتل اثنان وأربعون شخصاً بين رجل وامرأة وطفل، ولا ينسى التاريخ المذابح الأخرى التي جرت في كفر قاسم وحيفا وقرية الناصرة ، وهيهات أن يتوقف اليهود عن إشعال الحروب ، وهم في صراع مستمر بما نراه ممثلاً بين إسرائيل والدول العربية والإسلامية ، وما كان من أحداث خلال أعوام ١٩٤٨م ، و١٩٦٧م ، و١٩٧٣م ، وخلال عام ١٩٨٨م ، وما تخلله من الانتفاضة القائمة في فلسطين خلال الأعوام

٢٠٠٠ و ٢٠٠١م ، ٢٠٠٢م ، ٢٠٠٣م، وما هو حاصل في لبنان وإشعال نار الفتنة بين جميع طوائف المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى وكذا أسلوب المراوغة والمماطلة والتسويف في قبول السلام والمصالحة كما يجري اليوم بين إسرائيل وفلسطين حتى بعد ما تقدم العرب في عام ٢٠٠٢م بمشروع السلام الجرىء الذي رفضته إسرائيل لأنها لا تعرف إلا منطق الحرب ومنطق الاستعلاء والتمييز بكافة أشكاله، بل إنهم يراوغون حول مشروع خارطة الطريق الذي أعدته أمريكا عام ٢٠٠٣م مع ما فيه مِنْ كثير مصلحة لليهود، لكنهم لا يريدون إلا الحرب والقتال وسفك الدماء وانتهاك حقوق الإنسان، وهكذا فقد: «أثبتت الحوادث والحروب القديمة أن مضرمي نارها إنما هم اليهود ليغنموا من ورائها المال والثراء ، ويشفوا صدورهم من الأحقاد ، وذلك أنهم في كل بلاد يقيمون فيها يرسمون سياستها في هدوء وتدبير وصبر وأناة، حتى إذا تمت لهم السيطرة عليها فرضوا سلطانهم على الحكومات، واستولوا على ناصية الأمور فيها، وأمكنهم أن يحولوها ذات اليمين وذات اليسار ، وتدخلوا في شؤون الدولة سياسياً أو حربياً أو اجتماعياً، كما أرادوا لخطتهم في البلاد الأوروبية، وفي أمريكا ، وفي غيرها. ونجد أنه بعد الحرب العالمية الأولى استطاع اليهود الحصول على وعد بلفور، وبعد الحرب العالمية الثانية أمكنهم بمعرفة بريطانيا خلق إسرائيل، فهل كانت هذه محض مصادفة»[١٣٤]، ويعمل اليهود على محاربة الألمان بجميع الوسائل روحياً ومادياً والقضاء على ألمانيا والألمان، ولو عن طريق الإبادة والعقم وهو حلم اليهود الأول، كما يحاولون القضاء على عرب فلسطين والمسلمين فيها بالحرب والقتل، ونشر الغازات السامة، والأطعمة المسمومة، والأدوية الفاسدة وتدمير منازلهم ومزارعهم وقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم، أين حقوق الإنسان والمتباكون عليها أمام هذا الطغيان الصهيوني والتمييز العنصري والديني اليهودي؟ لماذا لا يرعوها في فلسطين؟ فكل هذه الحروب تبين أن اليهود يسفكون الدماء ويعشقون الحروب، وهذا ما

وصفهم به الله تعالى بأنهم يشعلون الحروب والله يطفأها ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[١٣٥].

ومن المعلوم أنه في الاجتماع الصهيوني الذي عقد في بودابست عام ١٩٤٥م ألقى الحاخام عمانويل رابينوفتش خطاباً يؤكد على أهمية الحروب لبقاء اليهود الذين ينادون بإشعال حرب عالمية ثالثة ، وتحريض الدول بعضها على بعض، واعتبار زعماء الدول مجرمي حرب، بقصد القضاء على الأجناس غير الإسرائيلية وغير اليهودية وهذا هو التمييز بعينه. ومع هذه الحقائق البينة نجد أن اليهود يلقون الاحترام والتقدير من الدول العظمى، يقول الفرد ليلنثال: « وقد قوبل مناحيم بيغن بالحماس والتأييد للأعمال «الباهرة» التي قام بها في فلسطين، من نسف فندق الملك داود بما فيه من النزلاء والخدم والأبرياء، إلى وضع قنبلة موقوتة تحت مبنى القنصلية البريطانية، إلى شنق عدد من الجنود البريطانيين، إلى ذبح النساء العربيات والأطفال في دير ياسين ، وعلى الرغم من كل هذه الأعمال الوحشية ، ظل بيغن بالنسبة للجنة الاستقبال الأمريكية التي أقامت على شرفه حفلة استقبال فاخرة ، بطل إسرائيل ، والمرشح الوحيد لتولي رئاسة الحكومة في الدولة اليهودية»[١٣٦]، إن اليهود بنظرتهم إلى أنفسهم من المنظور الديني القائم على التمييز يسعون إلى حرب جميع الأمين الأغيار، يستبيحون أعراضهم ويسفكون دماءهم ويأكلون أموالهم وما الربا إلا حرب على الله ومحادة له وحرب على أموال الناس، ولهذا فالله سبحانه وتعالى يحارب المحارب القاتل من أكلة الربا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[١٣٧]، وأورد ابن كثير في تفسير هذه الآية قول العلماء فقال: «**والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله**»[١٣٨]، ولما كان للربا خطر عظيم وانتهاك لحقوق الناس المالية والاقتصادية وفيه غبن وجحود قال فيه الرسول ﷺ : « **ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع فلكم رؤوس أموالكم لا**

تظلمون ولا تـظلمون»[١٣٩]، وهنا سـوف نبين كيف أن الربا حـرب وقتل لنفـوس الناس بظلمها وفرض الربا الفاحش عليها.

فتبعاً للقتل المادي للأرواح والأجساد ، هناك القتل المعنوي للنفـوس ، بسبب التمييز الديني والعـنصري وذلك عن طريق أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، إذ لم تشـتهر أمـة من الأمم كمـا اشتـهر اليهـود بولعهم بالمادة والمال واليـورو والدولار ومحاولـتهم الثراء بكل الصور، ومنهـا الربا، الذي يفرضونه على من يقـترض منهم المال وهو في حاجة وعوز، ولقد أوضح الإسلام النظام السليم للاقتصاد الذي يقوم عليه المجتمع المسلم، وما يضـمنه من تكافل وتعاون في حق المسلم وحق غير المسلم ممثلاً في الزكاة المفـروضة، وهي ركن من أركـان الإسـلام التي بدونها لا يكتـمل إسلام مسلم، وأيضـاً الصدقات المستحبة المندوبة لتكفير الخطايا وكفـالة المحتاجين في المجتـمع، وكذلك نـظام دفع القروض دون مـقابل، فـالصدقة بـعشر حـسنات، والقرض بثماني عشرة حسنة، والقرض يدفع للمقترض بقصد طلب الأجر والإحتساب عند الله، لأن الأعـمال الصـالحـة تربو عند رب العالمين الغـني القني الذي هو أغنى وأقنى ، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾[١٤٠]، والأعمال البـاطلة تُمْحَق، فالله يمحق الربا ويربي الـصدقات، ذلك لأن الربا يقتل النفـوس ويحبطها، ويثبطها عن العمل والحـياة، ويثـيرها للانتقـام، ويجعلهـا مكاناً للأحقـاد، والربا شح وقذارة ودنس ذو أثر سيئ، والله سبحانه وتعالى لم يأمر بأمر فيه إعلان الحرب على معصية من المعاصي، ولا على سيئة من السيئات، كـما أمر به في حالة الربا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾[١٤١].

إن المرابين من اليـهود لا يملكون المال وحـده ، بل يملكون معـه النفوذ وأدوات

الشر والتخريب الاقتصادي والأخلاقي ، وهذا النفوذ الذي يملكه اليهود في عصرنا الحاضر يتمثل في إنشاء المشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال لأموال الناس ، ويقولون بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول لانتعاش الاقتصاد الإنساني ونموه ، وفي الحقيقة إن النظام الربوي يجعل أموال الشعوب، ومقتنيات الإنسان وممتلكاته صائرة إلى عدد قليل من المرابين من أصحاب البنوك والمؤسسات الكبرى التي يمتلكها اليهود، وهم بهذا إنما ينبئون بخصلة من خصالهم ، وهي إفقار الشعوب وتركها للجوع والمعاناة والموت، لأنهم جعلوا الحلال مثل الحرام ، فيقولون إن البيع مثل الربا وشتان بينهما، ولعل إفقار الشعوب سياسة ينهجها اليهود لإذلال الناس، وهذا حال كثير من الدول التي تركت جادة الصواب، فهلكت وأهلكت الأمم والشعوب، يقول غوستاف لوبون : «وكان الربا محرماً بشدة بين بني إسرائيل، مع أنهم كانوا يرونه مباحاً تجاه الأجانب في كل زمن ، وكان مبدأ التضامن القومي الزاجر القوي الوحيد الذي يضع حداً لجشع اليهودي»[١٤٢]، أليس هذا الجشع وهذا الربا مما يتناقض مع الإنسانية والمبادئ الحقوقية.

ولأن اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، فإنهم يسعون بكل وسيلة للقضاء على بقية الأمم والشعوب لأنهم من الأغيار ، وهذا الاستعلاء العنصري الذي ينطلق من مفاهيم دينية مغلوطة بعثت على التمييز العنصري من بعده الديني فجعلت اليهود يوجدون كل الوسائل التي بها يهلك الآخرون من صنوف الرذائل وأنواع الجرائم والتي سنوجزها في الصفحات القليلة الآتية لنبين كيف أنه من بعد عنصري ديني وفكري يسعى اليهود إلى تدمير الأمم والشعوب. فإذا ما تحدثنا عن أم الخبائث الخمر، وما يلحق بها من مسائل المسكرات والمخدرات، ومن ثم مسألة الجنس، نجد أن لليهود اليد الأولى والطولى في هذه الدنيا، فهم يعمدون للعبث بأخلاق الشعوب، ونشر الانحرافات فيها ، فالخمرة مذهبة للعقل مذهبة للصحة ، مضيعة للوقت، فهي ضياع للمال وتدمير للسلامة والأمن، وهذا الكيد باستخدام

المسكرات والمخدرات من اليهود قديم، فقد كانوا متسلطين على العرب قبل الإسلام ، وكانوا ينشرون الخمر بينهم، فيفسدونهم ويأكلون أموالهم ، يدلنا على ذلك الشعر الجاهلي ، إذ من الملاحظ أن الخمار غالباً ما يكون يهودياً ، يأتي بالخمر من بلاد العجم كما قال المرقش الأصغر :

سباهاً رجال من يهود بتاعددا لجيلان يدينها من السوق مربح[١٤٣]

ولعلم اليهود أن الخمر رجس تذهب العقول ، وتضع الإنسان في موضع يتصرف فيه بغير وعي أو شعور ، وما يترتب عليه من نتائج ، فقد أشاعوا نشر الحانات لتقوية سلطان الذهول والخمول في كثير من الدول، ففسد الناس وأصبحت الحكومات تعاني من المدمنين للخمر والمسكرات والمخدرات ، وفتحت أقسام متخصصة في المستشفيات لعلاج هؤلاء الناس مما وقعوا فيه من شباك اليهود، الذين يعمدون للقضاء على الجنس البشري من غير اليهود، والجشع اليهودي لطلب المال دفعهم إلى ترويج المخدرات للفتك بالناس في صحتهم وأموالهم، نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها ذي الرقم ٤٩١١ تاريخ ١٩٩٢/٥/٩م مقالاً مطولاً بعنوان: «عسكريون وحاخامات متورطون في تهريب ٧٠٠ طن مخدرات تدخل مصر سنوياً من إسرائيل والتطبيع السياحي أصبح ستاراً لشبكات تجسس»[١٤٤]، بل وأوقع اليهود الناس في نزوات الجنس وما تبع ذلك من انتشار الأمراض الخبيثة ، يقول هنري فورد :« وليس الموضوع المهم هو أن تجارة الخمور في أيدي اليهود فحسب، وإنما تقوم تلك الأهمية في ذلك الجهاز الشرير الذي انتشر في طول البلاد وعرضها ، والذي يعمل على غش الخمور ، محطماً صناعتها في البلاد ، ومدمراً مئات الألوف من المواطنين الذين وثقوا بالأسماء المشهورة التي تحملها المنتجات الصادرة عن هذا الجهاز والتي كتب عليها «نقية وغير مغشوشة» ، ونحن نقول : إنها حقاً «نقية وغير مغشوشة» ، ولكن حامض الفنيك أيضاً «نقي وغير مغشوش ، وذلك لا يحيله إلى ويسكي »[١٤٥]،

فالواضح أن اليهود يقومون بإضافة بعض العقاقير والمستحضرات الكحولية والكيميائية إلى الخمور، وقد اكتشف هذا الأمر الدكتور وسلي رئيس مكتب الكيمياء بأمريكا عام١٩٠٤م[١٤٦]. أي جريمة أفظع من هذه الجريمة؟ وأي رذيلة أفسد من هذه الرذيلة التي تحارب الناس وتذهب بحقوقهم في الحياة والمال والدين بمنطق الاستعلاء والاستكبار والتميز الديني والعنصري؟ أين المتباكون على حقوق الإنسان أمام هذا التيار الجارف من التمييز الديني من لدن اليهود؟ أهكذا تحفظ حقوق الإنسان؟ إن التمييز الديني بفكره المتكبر يناقض جميع المبادئ الحقوقية وينافي أدنى قواعد الإنسانية، ولكن اليهود لم يذعنوا ولن ينتهوا عن الباطل والمنكر والجريمة والإثم .

إن اليهود لم يقفوا عند هذا الحد، بل فتحوا أبواباً أخرى تندرج تحت باب المسكرات والمخدرات، تلك هي مسألة الجنس ونزواته، فلقد أقيمت دور البغاء والدعارة والعهر، وانتشرت وسائل الإعلام الفاسدة، انتشرت رذيلة الجنس من مجلات مطبوعة وأشرطة مسموعة، وأفلام مرئية، ومواقع مخزية على شبكة الإنترنت وقنوات فضائية فاضحة تصور الجنس وتدعو إليه وإلى الفساد، مع أن الزنا محرم في شريعة اليهود، إلا أنهم تعدوا حدود الله، فلقد كان سفاح ذوي القربى أي الزنا بالأخت والزنا بالأم، واللواط والسحاق، ومواقعة البهائم من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين ذلك الشعب[١٤٧].

إن تاريخ المعصية ونشر الرذيلة والفساد قديم عند بني إسرائيل ، فهم لا ينكرونه على أنفسهم ، فمن باب أولى ألا ينكروه على غيرهم ، بل يدفعون غيرهم إليه دفعاً، يقول سبحانه وتعالى في وصف اليهود في هذا الأمر: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[١٤٨]، لقد أذاعوا معتقداتهم الدينية الفاسدة حول مسألة الجنس بين الأمم والشعوب : «أن اليهودي لا يخطئ إذا

اعتدى على عرض الأجنبية، لأن عقود الزواج عند غير اليهود عقود فاسدة ، والمرأة غير اليهودية بهيمة ولا تعاقد مع البهائم ، والزنا بغير اليهود ذكوراً وإناثاً لا عقاب عليه، وجماع الوليدة من أبواب الحكمة، واللواط بالزوجة جائز، لأن المرأة للاستمتاع، وللرجل أن يستمتع بها كيف شاء»[١٤٩].

أذاع اليهود هذا الشر والفساد بين الأمم ، كما نجد ذلك في كبرى عواصم الدول الغربية والشرقية، ألم يعلم الغرب أن التمييز الديني اليهودي منطقه ليس علينا في الأميين سبيل؟ ألم يعلم الغرب أن اليهود أعداء الله ؟ فمن باب أولى أن يكونوا أعداء الناس وأعداء حقوقهم؟ ألم يعلم الغرب أن اليهود يرون شعوب العالم هم الأمين الأغيار الجويم Gentiles ؟ ألم يعلم الغرب أن اليهود يرون شعوب العالم جحوشاً ومطايا لأغراضهم؟ ، أما آن للغرب أن يفيق من سباته ويعلم حقيقة اليهود ومنطلقاته في التمييز الديني؟ أم أن الغرب اعتقد في صحة «وثيقة التبرئة» ، تلك الوثيقة التي تبرئ اليهود من دم المسيح ، والتي صدرت عن المجمع المسكوني عام١٩٦٥م ، بعد أن عرضت على مؤتمر الكنيسة الكاثوليكية المعروف باسم مؤتمر الفاتيكان الأول الذي عقد عام ١٨٦٨م[١٥٠] .

هل اعتقد الغرب وجميع نصارى العالم صدق دعوى اليهود ؟ إذاً تلك طامة كبرى، لأن تلك الوثيقة أدت إلى مزيد من التحريف والتبديل والتغيير في الأناجيل، كما تظهره الدراسات المقارنة الواعية بين نصوص الأناجيل وترجماتها المعروفة في عام١٦١١م ، وتلك الأناجيل التي طبعها اليهود بعد صدور وثيقة التبرئة، والتي طبعت في القدس عام١٩٧٠م مما حذا باليهود خلال زيارة البابا جون يوحنا الثاني إلى فلسطين خلال شهر مارس عام ٢٠٠٠م أن يقدم اعتذاراً عالمياً عن اتهام اليهود بقتل المسيح . عجباً للاستبداد والتمييز الديني والضلال الفكري، عجباً لمن ختم الله على قلبه وسمعه وبصره ، نحن في الإسلام نعلم أن بني إسرائيل قتلوا فريقاً من أنبياء الله ورسله ، وكذبوا فريقاً آخر ، ولكننا نؤمن بما جاء في القرآن الكريم بأن

عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته لم يقتل ولم يصلب، إذ كيف يسوغ لعقول النصارى أنه لو سلمنا جدلاً بأن عيسى هو ابن الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ، لوسلمنا بهذا ، كيف يمكننا أن نشاهد أن أمريكا الدولة الكبرى بالمقياس المادي تستطيع أن تحمي شعبها من أي عدوان ، فكيف لا يستطيع الله الأكبر العظيم الأعظم أن يحمي رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام من أيدي المجرمين القتلة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [١٥١].

والأمر ليس كذلك في الإسلام إذ لا يجوز إكراه أحد على الدخول في الإسلام بل ولا الإساءة إليه إذا بقي على دينه ، فالشريعة الإسلامية كما دلت كثير من آيات القرآن الكريم لها ضوابط ثابتة تمنع التمييز الديني قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾[١٥٢]، ويكفي أن نشير هنا إلى سورة الكافرون تلك السورة القليلة في عدد آياتها الكثيرة في معانيها التي تمنع التمييز الديني، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[١٥٣]، إن القرآن الكريم قد بين حقيقة اليهود والنصارى ومبدأهم في التمييز الديني فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[١٥٤]، هكذا يتهم اليهود النصارى والعكس بالعكس وأفعال الكثير منهم تناقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمثل شهادة الزور هذه ويسعون إلى التمييز الديني لمحاربة الإسلام والمسلمين، وقد بينا كثيراً من الشواهد في هذا الصدد عندما تحدثنا عن حقوق الأنبياء والرسل .

لقد اغتر اليهود والنصارى بما هم فيه وادعى كل فريق أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم فادعت اليهود أن النصارى على باطل وادعت النصارى أن اليهود على ضلال، عن ابن عباس قال: «لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة »[١٥٥]، هذا مبدأ التمييز بين القوم منذ القدم، وقد أوضحنا ذلك جلياً في مقدمة هذه الموسوعة فليراجع، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك»[١٥٦]، ولكي يؤيد اليهود والنصارى دعواهم الباطلة زعموا أن سلالة الأنبياء من أولاد إبراهيم كانوا يهوداً أو نصارى، فتحدث القرآن عنهم بقوله تعالى:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١٥٧]، لقد أنكر الله سبحانه وتعالى على اليهود والنصارى دعواهم ودحض فريتهم حيث جاء في آخر الآية قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، ثم أوضح الله سبحانه وتعالى أن من ترك التوحيد وهو ملة إبراهيم وذريته فهو ضال وعلى باطل قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٥٨]، ولو نظرنا نظرة تاريخية فيما يدعيه اليهود والنصارى من أن إبراهيم عليه السلام وذريته كانوا إما يهوداً أو نصارى فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاء قبل قرون طويلة من بعثة موسى وعيسى عليهما السلام ، فكيف أن نبي سابق كإبراهيم عليه الصلاة والسلام وذريته يصبح تابعاً لنبيين لاحقين مثل موسى وعيسى عليهما السلام هذا إفك عظيم، لقد أسقط القرآن الكريم حجة

اليهود والنصارى في أن إبراهيم كان منهم فقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٥٩].

والعرب في جاهليتهم مثلهم مثل اليهود والنصارى القدامى لم يكونوا يجحدون وجود الله ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقيقته التي تفرد بالصمدانية والوحدانية ، فهم يعترفون بأن الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر هو الله، ولكن كانت لديهم العديد من الآلهة التي يشركونها مع الله ويجعلون لها نصيباً من زرعهم وحرثهم وأولادهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[١٦٠].

كما أن العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأنهم أهدى من اليهود والنصارى ، ولما علموا أن دين النبي محمد ﷺ هو الحنيفية السمحاء دين إبراهيم عليه السلام كما تقدم، أخبروا الرسول ﷺ بأنهم على دين إبراهيم ولا حاجة لهم لترك ما هم عليه وساوموا الرسول ﷺ على حل وسط فقالوا له نحن نسجد لإلهك مقابل أن تسجد لآلهتنا وتسكت عن عيبها وعن عبادتنا لها ، ولم يكن العرب يعرفون أن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ولا تلاقيا بينهما، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يتوارث أهل ملتين شتى»**[١٦١]، وقوله ﷺ : « **لا**

يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر»[١٦٢]، والعنف الديني عند اليهود والنصارى، وكذا البوذيين والسيخ والهندوس وغيرهم حالهم حال الغرب في منهج الكبر والاستبداد والإكراه على قبول الدين مهما كان في الصكوك الدولية من أقوال وقواعد وهذا فيه تناقض كبير لحقيقة حرية الدين في الصكوك الحقوقية، إننا نجد النصارى في وقتنا الحالي يحاربون المسلمين في كثير من بقاع الأرض ويحاولون تنصيرهم ، وما نراه اليوم من سعي قوى الغرب إلى تفكيك بلاد أندونيسيا وجعلها مقاطعات نصرانية وأخرى مسلمة مع كثرة المسلمين مثال قوي لذلك، ونرى الهند وما يفعله بالمسلمين فيها وخصوصاً في إقليم كشمير ، وفي مينمار (بورما) وما يفعل بمسلمي الروهنجا ، وفي تايلند وما يتأذى منه مسلمي فطاني وفي الفلبين وما يتعرض له المسلمون في جنوبها ، وفي صربيا وغيرها من دول العالم ...الخ ، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١٦٣]، ولعل قائل يقول إن هذا نوع من الإكراه ، ودون إطالة نقول: إن الإسلام دين كل الرسل والأنبياء ونخص بالذكر اليهود والنصارى ، فإذا كان يظن اليهود أنهم على حق مع شكنا فيما فعله أحبارهم من تبديل وتحريف في كتبهم فإننا نقول لهم إن كنتم تؤمنون بموسى عليه السلام ومن لم يؤمن بموسى فليس على هدى نقول لهم نحن نؤمن بموسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام وهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ فالضمان هو لمن آمن بموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والحال كذلك بالنسبة للنصارى الذين يؤمنون بعيسى عليه السلام وهم على شرك بالله على أنه ابن الله، ولكن نحن نؤمن بعيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها على مريم وروح منه ﷺ ونؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فالضمان إذاً لمن آمن بموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهذا هو اعتقاد المسلمين أتباع النبي الأمي محمد ﷺ لا يكرهون أحداً على دينهم ولكنهم يعلمون أنهم على حق وأن رسل الله جميعاً أرسلوا بدعوة التوحيد ودين الإسلام، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[١٦٥]، هذه الآيات وأمثالها مما ذكرنا آنفاً تدل على أن الإسلام دين الحق ولكنه لا إكراه في الدين، ولا إساءة إلى الإنسان بتمييز ديني ، وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[١٦٦].

وبما لا يدع مجالاً للشك يتضح من المقارنة بين مبادئ الأديان الثلاثة وحقيقتها من أيها يأتي التمييز الديني، أهو من أصحاب من قال كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا؟ أم هو من أصحاب الذين يقولون لا إكراه في الدين؟ أهو من الذين يشعلون الحروب وينهبون الثروات ويروجون المخدرات ويأكلون الربا استعلاءً بدينهم؟ أم هو من الذين يقولون لا تأكلوا الربا؟ والذين يقولون إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان .. الخ ؟ ليتفحص القارئ اللبيب أي دين يمارس التمييز بين الناس ويأتي في مبادئه من النواقض بما لا يتوافق مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، وإليك شهادات بعض عقلاء الغرب الذين أكدوا على أنه لا يوجد في أحكام الإسلام وشرائعه أي نوع من أنواع التمييز الديني مثلما هو موجود في الأديان الأخرى.

يقول المفكر والقانوني الفرنسي المعاصر مارسيل بوزارا: « منذ بدء الفتح العربي الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة، وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة، أصدر أبو بكر رضي الله عنه أول خليفة للنبي ﷺ إلى جنوده التعليمات المشهورة المرنة كثيراً التي تحتضر الروح الخلقي للقانون الإسلامي»[١٦٧]، ويقول الكاتب الدانماركي م. يول A. yoll : « إن التسامح الواسع الأفق الذي يتسم به الإسلام في معاملة الأديان الأخرى يجعله محبباً لدى جميع من يحبون الحرية، وهذا موقف كريم بكل تأكيد حقق سبقاً كبيراً على موقف الأديان الأخرى، كما

أن تحرر الإسلام الكامل وخلوّه من عبادة الأوثان يعتبر علامة واضحة على قوة العقيدة الإسلامية ونقائها التام»[١٦٨]. كما يتحدث المؤرخ الإسباني ج. براند ترند J. Brand Trenعن سماحة الإسلام فيقول : « في القرن العاشر الميلادي تردّت معظم أوروبا في همجية ووحشية مريعة، على حين أن المسلمين في أسبانيا ضربوا مثلاً رائعاً بما كفلوه لغيرهم من ذوي العقائد المخالفة لمذهبهم من سعة العيش والتسامح.. »[١٦٩]، ويقول المفكر البريطاني الدكتور م. دوراني M.Durrani « أكثر ما استهواني إلى الإسلام كان ولا يزال جوانبه العملية، فإذا أردت أن تشاهد علاقة الحب الحقيقية التي تقول (أحبب جارك مثلما تحب نفسك) فستجدها في أخوة الإسلام لا في الكنيسة حيث يسعى البابا والمطارنة والأساقفة وغيرهم وراء السلطة مستخدمين اسم الله كمبرر لما يفعلون »[١٧٠].

من هذه المبادىء التي جاءت في القرآن الكريم وأقوال الرسول محمد ﷺ ، وما ذكره الباحثون من أقوال وما قدموه من شهادات عن حقيقة التسامح الديني في الإسلام ومناهضته لكافة أشكال التمييز يتضح سمو الإسلام ومبادئه التي معها يتوافق معها كثير مما تسعى إليه هيئة الأمم المتحدة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وبعض الصكوك الدولية بما لا يناقض تلك المبادىء الحقوقية مما هو موجود لدى الاخرين .